

«نور متوهج في الأدب
الإيطالي الحديث...
واحدة من أكثر كتَّاب
إيطاليا تميزًا»

«نيويورك رفيو أف بوكس»

نتاليا جينزبورج

أصوات المساء

رواية

نتاليا جينزبورج

أصوات المساء

رواية

ترجمتها عن الإيطالية
أماني فوزي حبشي

الكرمة

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: Le voci della sera

نشر هذا الكتاب بدعم للترجمة من وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية

Questo libro è stato tradotto grazie a un contributo alla traduzione del Ministero degli Affari Esteri

e della Cooperazione Internazionale italiano.

جينزبورج، نتاليا.

أصوات المساء: رواية / نتاليا جينزبورج؛ ترجمة أماني فوزي حبشي – القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٦.

٢٢٤ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776467477

١ – القصص الإيطالية.

أ – حبشي، أماني فوزي (مترجم).

ب – العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣١٤٥ / ٢٠١٦

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

صورة الغلاف: إنجريد برجمان عام ١٩٢٩

إلى «جابريلي».

جميع الشخصيات والأماكن في هذه القصة من وحي الخيال.

بعض الأماكن لا وجود لها على أي خريطة جغرافية.

الأشخاص لا وجود لهم، بل ولم يكن لهم أي وجود في أي بقعة من بقاع العالم.

يؤسفني جدًّا قول هذا، لأنني أحببتهم بالفعل كأنهم حقيقيون.

كنت قد اصطحبت أمي إلى الطبيب، ثم في طريق عودتنا إلى المنزل سِرنا عبر المدق المحاذي لغابة الجنرال «سارتوريو»، ومن بعدها للحائط المكسو بالطحالب لفيلَّا عائلة «بوتيليا».

كنا في شهر أكتوبر، وكانت البرودة تتسلل إلى الجو، وفي تلك البلدة التي تركناها خلفنا أُضيئت المصابيح الأولى للطرقات، وكانت الكرة الأرضية الزرقاء لفندق «كونكورديا» تعكس ضوءًا بلوريًّا على الميدان المهجور.

قالت أمي:

ـ أشعر بأن بندقة في حلقي، كلما ابتلعت ريقي آلَمَتْني.

قالت:

ـ عِمت مساءً أيها الجنرال.

فقد مر الجنرال «سارتوريو» رافعًا قبعته من فوق شعره الفضي المجعَّد، ونظارته الأحادية على عينه، ممسكًا بكلبه في مقوده.

قالت أمي:

ـ يا له من شعر ما زال جميلًا في هذه السن!

قالت:

ـ هل رأيت كم صار الكلب قبيحًا؟
الآن أشعر بطعم الخَلِّ في حلقي. هي تلك العقدة التي ما زالت تؤلمني!
كيف إذن وجد ضغطي مرتفعًا؟ لقد كان ضغطي دائمًا منخفضًا!

قالت:

ـ عِمتَ مساءً يا «جيجي».

كان ابن الجنرال «سارتوريو» قد مر واضعًا معطف «مونتجمري» أبيض فوق كتفيه، حاملًا على يده سلطانية مغطاة بمفرش صغير، بينما ذراعه الأخرى مُجبَّرة ومثنية للخارج.

قالت أمي:

ـ كانت سقطة سيئة للغاية، مَن يدري إذا كانت ذراعه ستعود إلى حالتها الطبيعية؟

قالت:

ـ تُرى، ماذا يوجد في تلك السلطانية؟

ثم قالت:

ـ لا بد أن هناك حفلة، ربما عند عائلة «تيرنزي». مَن يذهب فعليه إحضار شيء ما، كثيرون يفعلون هذا اليوم.

قالت:

ـ ولكن ألا يدعوكِ أحد قَطُّ؟

قالت:

ـ لن يدعوكِ، لأنهم يرون أنكِ تتعاملين معهم بتعالٍ. لم تعودي حتى ترددين على نادي التنس. إذا لم يظهر المرء في الجوار يقولون إنه متكبر، ولا يعود أحد يبحث عنه. وعلى العكس، إن «صغيرات بوتيليا» تتم دعوتهن في كل مكان. في إحدى الأمسيات رقصن لدى عائلة «تيرنزي» حتى الثالثة صباحًا. وكان ضمن المدعوين أشخاص غرباء، وحتى شخص من الصين.

«صغيرات بوتيليا»، ما زال الاسم الذي يُطلَق عليهن في منزلنا، على الرغم من أن الصغرى سنُّها تسعة وعشرون عامًا الآن.

قالت:

ـ هل يمكن أن أكون قد أُصِبْتُ بتصلُّب في الشرايين؟

قالت:

ـ هل يمكننا أن نثق بهذا الطبيب الجديد؟ طبيبنا القديم كان مُسِنًّا، أفهم هذا، لم يعُد يهمه شيء. إذا ذكر له شخص أنه يعاني شيئًا ما، أجاب على الفور بأنه هو أيضًا يعانيه. أما هذا الطبيب فيكتب كل شيء، هل رأيتِ كيف يكتب كل شيء؟ هل رأيتِ كم هي قبيحة زوجته؟

قالت:

ـ ولكن هل من الممكن أن يحصل المرء منك، بعض المرَّات، على معجزة التفوُّه بكلمة؟

قلت:

ـ أي زوجة؟

ـ زوجة الطبيب.

قلت:

ـ إن من فتحت لنا الباب ليست زوجته، بل الممرضة. ابنة حائك «كاستيللو»، ألم تعرفيها؟

ـ ابنة حائك «كاستيللو»؟ كم هي قبيحة!

قالت:

ـ وكيف إذن لم تكن ترتدي زيَّ الممرضات؟ ربما تعمل لديه خادمة لا ممرضة إذن.

قلت:

ـ لم تكن ترتدي الزي لأنها خلعته؛ إذ كانت على وشك الذهاب إلى المنزل. إن الطبيب ليس لديه خادمة، ولا حتى زوجة. إنه أعزب ويتناول وجباته في فندق «كونكورديا».

ـ أعزب إذن؟

وعلى الفور رأتني أمي زوجة للطبيب في خيالها.

ـ مَن يدري إذا كان مرتاحًا أكثر هنا أو في «تشينيانو» حيث كان؟ ربما الحياة أفضل في «تشينيانو»، حيث عدد الناس أكثر، والحياة أكثر إثارة. علينا أن ندعوه يومًا إلى الغداء، مع «جيجي سارتوريو».

قلت:

ـ خطيبته في «تشينيانو»، سيتزوجان في الربيع.

ـ مَن؟

ـ الدكتور.

ـ إنه ما زال شابًّا صغيرًا. خاطب بالفعل؟

كنا نسير في درب حديقتنا المغطى بالأوراق، وكانت تظهر نافذة المطبخ المنيرة، وكانت خادمتنا «أنطونيا» تخفق البيض.

قالت أمي:

ـ الآن جفَّت أكثر تلك العقدة في حلقي، وثبتت في مكانها، لا تعلو ولا تهبط.

جلست في المدخل وهي تتنهد، وأخذت تضرب كلا حذاءيها بالآخر لتتخلص من الوحل العالق بهما. وخرج أبي من باب المكتب، والغليون في فمه، وهو يرتدي سترة المنزل من صوف «البيرينيه».

قالت أمي بشيء من الفخر:

ـ ضغطي مرتفع!

ـ مرتفع؟

هكذا صاحت خالتي «أوتافيا» من قمة السلالم، وهي تضبط ضفيرتَي شعرها السوداوين، صوفيتَي الملمس كأنهما لدمية.

ـ نعم مرتفع، ليس منخفضًا، ضغطي مرتفع.

كانت إحدى وجنتَي خالتي «أوتافيا» مُضرَّجة بالحمرة

والأخرى شاحبة، كما يحدث دائمًا عندما تستلقي على المقعد بجوار المدفأة لتقرأ كتابًا من مكتبة «سيليكتا».

قالت «أنطونيا» وهي تقف على باب المطبخ:

ـ لقد أرسلوا من «فيلَّا بوتيليا» يطلبون بعض الدقيق. لم يكن لديهم ما يكفي وأرادوا إعداد حلوى «البينيي»، فأعطيتهم صحنًا كبيرًا.

ـ مرة أخرى؟ ولكنهم ينقصهم الدقيق دائمًا! ألا يمكنهم الاستغناء عن «البينيي»؟ إنه ثقيل على المعدة في المساء.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ ليس ثقيلًا على المعدة إلى هذه الدرجة.

ـ بل ثقيل.

خلعت أمي قبعتها ومعطفها، وبطانة من جلد القط ترتديها دائمًا أسفل المعطف، ثم الشال الذي تشبكه على صدرها بدبوس إنجليزي.

قالت:

ـ ربما أعدوا «البينيي» للحفلة التي ستقام لدى عائلة «تيرنزي». لقد رأينا «جيجي سارتوريو» أيضًا وهو يحمل

سلطانية. مَن جاء وطلب الدقيق؟ «كارولا»؟ ألم تقل لك أي شيء عن الحفل؟

قالت «أنطونيا»:

ـ نعم، لم تقل لي أي شيء.

صعدتُ إلى حجرتي، وهي في الطابق الأخير وتطل على الحقل. في المساء تظهر من بعيد أضواء بلدة «كاستيللو»، وقليل من أضواء «كاستيل بيكولو»، هناك في الأعلى، عند مرتفع الهضبة. وفي ما وراء الهضبة، تقع المدينة.

في غرفتي يوجد فراش بداخل تجويف، بستائر من النسيج الرقيق، ويوجد مقعد منخفض، مصنوع من قطيفة رمادية اللون، وتسريحة فوقها مرآة، ومكتب من خشب الكرز. توجد أيضًا مِدفأة من الفخار، لونها بُني، بجوارها سلة وُضعت بداخلها قِطع من الخشب، ورفٌّ دوَّار فوقه تمثال لذئب من الجبس، نحته ابن الفلاح الذي يعمل لدينا، الموجود حاليًّا في مستشفى الأمراض العقلية. على الحائط توجد صورة للوحة «العذراء الجالسة»، ومنظر طبيعي لـ«سان ماركو»، وجيب كبير للجوارب مصنوع من أشرطة ذات عقد من القلوب الزرقاء، هدية من السيدة «بوتيليا».

سنِّي سبعة وعشرون عامًا.

لي أخت تكبرني بقليل، متزوجة وتعيش في جوهانسبرج. أمي تقرأ الصحف لترى إذا كانت هناك أي أخبار عن جنوب أفريقيا، فهي تشعر دائمًا بالقلق لما يحدث هناك. تستيقظ في الليل وتقول لأبي:

ـ ألن يذهب الماو ماو إلى هناك، إلى حيث تعيش «تيريزيتا»؟

ولي أخ أصغر مني بقليل، يعمل في فنزويلا. ما زالت توجد في خِزانة حجرة الملابس بالمنزل أقنعته الخاصَّة برياضة المبارزة ورياضة الغطس، وقفازات الملاكمة، لأنه كان في صباه رياضيًّا. وعندما يفتح أحدهم الخِزانة على مصراعيها تسقط القفازات فوق رأسه.

تتذمر أمي دائمًا لأن أولادها يعيشون بعيدًا عنها، وكثيرًا ما تذهب لتبكي لدى صديقتها السيدة «نينيتا بوتيليا».

لكنها دموع تسكبها ببعض السرور، لأنها دموع ترضيها قليلًا، دموع تختلط بالفخر بأنها ألقت لقاحها في أماكن بعيدة جدًّا وخطيرة. ولكن الغصة الأكثر إيلامًا، بالنسبة إلى أمي، هي أنني لا أتزوج، وهي غصة تُسبِّب لها حزنًا، وترى العزاء فقط في واقع أن «صغيرات بوتيليا» أيضًا، في الثلاثينيات من عمرهن ولم يتزوجن بعد.

لفترة طويلة كانت أمي تحلم بأن أتزوج ابن الجنرال «سارتوريو»، وهو الحلم الذي تبخر عندما قالوا لها إن ابن الجنرال «سارتوريو» مدمن مورفين، ولا يهتم بالنساء.

ومع ذلك، أحيانًا كانت تعيد التفكير في الموضوع. تستيقظ ليلًا وتقول لأبي:

ـ لا بد أن ندعو ابن الجنرال «سارتوريو» إلى الغداء.

ثم تقول:

ـ ولكن هل تعتقد أنه انحرف جنسيًّا بالفعل؟

يقول أبي:

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ـ يقولون هذا عن كثيرين، وربما قالوه أيضًا عن ابننا «جامبييرو».

يقول أبي:

ـ ربما.

ـ ربما؟ ماذا تعني بربما؟ هل نما إلى علمك أن أحدهم قال ذلك؟

ـ كيف لي أن أعرف؟

ـ ومَن يجرؤ أن يقول شيئًا كهذا عن ابني «جامبييرو»؟

نسكن في بلدتنا منذ أعوام كثيرة. أبي هو مُحرِّر العقود في المصنع، والمحامي «بوتيليا» هو مدير المصنع، والبلدة كلها تعيش معتمدة على المصنع.

والمصنع ينتج القماش.

تنبعث من المصنع رائحة تملأ طرقات البلدة، وعندما تهب الرياح الشرقية تصل حتى منزلنا؛ الذي يقع في قلب الريف. رائحة تشبه أحيانًا رائحة البيض الفاسد، وأحيانًا أخرى رائحة اللبن المجبَّن. لا يوجد أي حل، ويقول أبي إن السبب هو بعض الأحماض التي يستخدمونها.

* * *

أصحاب المصنع هم آل «دي فرانتشيشي».

كانوا يطلقون على «دي فرانتشيشي» المُسن لقب «بالوتا المُسن». كان قصيرًا وسمينًا، بكرش كبيرة مكوَّرة تكاد تنفجر من بنطلونه، وكان ذا شاربَين ضخمَين متدليَين يشوبهما الاصفرار من دخان السيجار الذي كان يمضغه ويمتصه. بدأ بورشة لم تكن صغيرة، وكما يقصُّ أبي: «تقريبًا من هنا إلى هناك». كان يتجول بدراجته، ويضع وجبة غدائه في حقيبة ظهر قديمة لجندي، ويأكل في

الشمس مستندًا إلى حائط الممر، وفتات الخبز يغطي سترته، وهو يتجرع النبيذ من الإناء الفخاري. لا يزال الحائط موجودًا حتى الآن، ويسمونه «حائط بالوتا المُسن»، لأنه في المساء، وبعد الانتهاء من العمل، كان يقف هناك والبيريه موضوع إلى الخلف ليدخن سيجاره وليدردش مع العمال.

يقول أبي:

ـ عندما كان «بالوتا المُسن» موجودًا لم يكن يحدث بعض الأشياء.

كان «بالوتا المُسن» اشتراكيًّا، وظل دائمًا اشتراكيًّا، على الرغم من أنه، بعد دخول الفاشية، فقدَ عادة أن يُعبِّر عن أفكاره بصوت مرتفع. ولكنه كان قد أصبح في آخر أيامه ذا مزاج حزين جدًّا وفظ، وفي الصباح عندما كان يستيقظ، كان يستنشق الهواء ويقول لزوجته السيدة «تشيتشيليا»:

ـ ولكن ما هذه الرائحة الكريهة؟

وكان يقول:

ـ لا أتحملها!

كانت السيدة «تشيتشيليا» تقول:

ـ ألم تعُد تتحمل رائحة مصنعك؟

فكان يقول:

ـ بلى، لم أعُد أتحملها!

وكان يقول:

ـ لم أعد أتحمل البقاء على قيد الحياة!

كانت السيدة «تشيتشيليا» تقول:

ـ يكفي وجود الصحة.

وكان «بالوتا المُسن» يقول لزوجته:

ـ أنتِ تقولين دائمًا أشياء جديدة وفريدة.

ثم أُصيبَ بمرض في المرارة، وقال لزوجته:

ـ حتى الصحة لم تعُد موجودة، وأنا لم أعد أتحمل البقاء على قيد الحياة.

قالت السيدة «تشيتشيليا»:

ـ يعيش المرء ما دام الرب يسمح بذلك.

ـ رب ماذا؟ لا ينقصنا إلا وجود رب أيضًا!

كان يقف دائمًا مستندًا إلى حائط الممر، وذلك الحائط وتلك الزاوية من الممر هما كل ما تبقى من الورشة

القديمة، أما كل ما عدا ذلك فهو مبنى من الأسمنت المُسلَّح، حجمه يضاهي حجم البلدة بأكملها. ولكنه لم يعد يأكل ذلك الخبز، فقد أمره الطبيب باتباع نظام غذائي من الخضراوات المسلوقة، وكان مضطرًّا إلى أن يتناولها في المنزل جالسًا أمام المائدة. منع الطبيب عنه أيضًا النبيذ والسيجارِ وركوب الدراجة؛ كانوا يصحبونه إلى المصنع بالسيارة.

ربَّى «بالوتا المُسن» صبيًّا في منزله؛ أحد أقاربه من بعيد، يتيمًا منذ الطفولة، وجعله يدرس مع أولاده. كان اسمه «فاوستو»، ولكن كان الجميع يدعونه «البوريللو»، لأنه كان يرتدي دائمًا بيريهًا من هذا الطراز، يصل حتى أذنيه. مع الفاشية أصبح «البوريللو» فاشيًّا، وقال «بالوتا المُسن»:

ـ شيء طبيعي؛ لأن «البوريللو» مثل الجُعَل الذهبي الذي لا يقف إلا فوق الروث.

كان «بالوتا المُسن» يسير في ممر المصنع، يداه خلف ظهره، والبيريه يصل إلى الرقبة، ووشاحه المشحَّم البالي يلتصق بعنقه كأنه حبل، وكان يقف أمام «البوريللو»، الذي أصبح يعمل في المصنع، ويقول له:

ـ أنت يا «بوريللو» سمج، وأنا لا أتحملك.

كان «البوريللو» يبتسم، مقوِّسًا فمه الصغير، بأسنانه ناصعة البياض المستقيمة، وكان يمد ذراعيه ويقول:

ـ لا يمكن أن أكون موضع استلطاف الجميع.

ـ حقيقي.

كان «بالوتا المُسن» يقولها وهو يبتعد، بيديه المعقودتين خلف ظهره، وبخطوته المعوجة، بينما يحكُّ الأرض بحذاءَيه كأنهما خُفَّان.

لكن عندما اعترضته وعكة صحية، كلف «البوريللو» بإدارة المصنع.

لم تهدأ السيدة «تشيتشيليا» جراء التجاوز الذي حدث لولديها، وكانت تسأل:

ـ ولماذا «البوريللو»؟ لماذا لم تعيِّن «ماريو»؟ ولماذا لم تعيِّن «فينتشينزو»؟

وكان «بالوتا المُسن» يقول:

ـ لا تتدخلي أنتِ، اهتمي فقط بطهيك. «البوريللو» شخص ذكي، أما ولداكِ فلا يساويان مليمًا. «البوريللو» شديد الذكاء، وإن كنتُ لا أتحمَّله.

وكان يقول:

ـ على كل حال، سيذهب كل شيء إلى الجحيم مع نشوب الحرب.

سكن «البوريللو» معهم دائمًا، في «الكازيتَّا»: هكذا كانوا يطلقون على منزل «بالوتا المُسن»، الذي كان قد اشتراه بمبلغ بسيط، في وقت الحرب الأولى: وكان منزل فلاحين صغيرًا، اشتراه مع بستان للخضراوات وآخر للفاكهة، وحقل كروم، ثم حوَّله هو إلى منزل كبير وجميل، بشرفات وأروقة، ولكنه ترك له بعضًا من ملامحه القديمة. لطالما سكن «البوريللو» معهم، ولكن في لحظة ما أخرجه «بالوتا المُسن» من المنزل. ذهب «البوريللو» إلى «لي بيتري»؛ منزل على الجانب الآخر من الهضبة كان «بالوتا المُسن» ابتاعه لأخوَيه؛ «باربا تومازو» و«مانيا ماريا»، مكان يعده «بالوتا المُسن» مَنفى؛ إذ كان يرسل أولاده لفترات محدَّدة عندما كان الشجار بينه وبينهما يزيد على الحد. لكن عندما أرسل «البوريللو» كان من الواضح أنها ليست مجرد فترة مؤقَّتة، وفي المساء عندما ذهب، كانت السيدة «تشيتشيليا» تبكي وهي جالسة أمام مائدة الطعام، ليس لأنها كانت تكنُّ مشاعر خاصَّة لـ«البوريللو»، ولكن لأن عدم وجوده في المنزل كان يجعلها تشعر بالفقد؛ إذ كان معها دائمًا منذ كان طفلًا صغيرًا. وقال لها «بالوتا المُسن»:

ـ هل ترغبين بالفعل في إهدار دموعكِ من أجل «البوريللو»؟
أعتقد أنني سأستطيع تناول عشائي بشكل أفضل بلا وجه عابس.

لم يسأل أحد «باربا تومازو» ولا «مانيا ماريا» إذا كانا سعيدين بأن يعيش «البوريللو» معهما، ومن ناحية أخرى لم يكن «بالوتا المُسن» يسأل أيًّا منهما قَطُّ عن رأيه في أي شيء.

كان يقول:

ـ إن أخي «باربا تومازو»، مع احترامي، شخص غبي.

ويقول:

ـ وأختي «مانيا ماريا»، مع احترامي لها، غبية.

ومفهوم طبعًا أنه حتى «البوريللو» لم يُسأل إذا كان يرغب في السكن مع «باربا تومازو» و«مانيا ماريا».

على كل حال، لم يكُن «البوريللو» يقضي وقتًا طويلًا مع هذين المُسنَّين. كان يتناول الوجبات معهما، وبعد الغداء كان يُخرِج علبة من جلد الثعبان، عليها الحرفان الأولان من اسمه ولقبه مصنوعان من الذهب.

ـ سيجارة يا «باربا تومازو»؟

سيجارة يا «مانيا ماريا»؟

ولم يكُن يهتم بأن يقول أي شيء آخر.

كان يضع قبعته «البوريللو» على رأسه ويذهب إلى المصنع.

كان كلٌّ من «باربا تومازو» و«مانيا ماريا» يشعر نحوه بالخوف والاحترام. لم يجرؤا أن يقولا له أي شيء عندما علق في حجرة الطعام صورة شخصية له، كبيرة جدًّا، وهو يرتدي قميصًا أسود اللون وذراعه ممدودة، وهو يقف بين أعضاء الحزب الفاشي في أثناء زيارتهم للمصنع.

لم يكُن لدى «باربا تومازو» و«مانيا ماريا» أي آراء سياسية واضحة، ولكنهما كانا يهمسان فيما بينهما:

ـ ماذا سنعمل إذا أتى «بالوتا» إلى هنا يومًا ما؟

ولكن كان هذا احتمالًا ضئيلًا جدًّا، لأن «بالوتا المُسن» لم يكن يذهب قَطُّ إلى «لي بيتري».

* *

ثم اندلعت الحرب. ذهب أبناء «بالوتا» إلى الحرب، ولكن تم تسريح «البوريللو» لأنه كان يعاني من متلازمة مخرج الصدر، حيث أصيب بالتهاب الجنبة في الطفولة، حتى إنه يمكن سماع صفير تنفُّسه حتى الآن.

في أعقاب الثامن من سبتمبر ذهب «البوريللو» في ليلة ما إلى «الكازيتَّا» وأيقظ «بالوتا» والسيدة «تشيتشيليا». طلب منهما ارتداء ملابسهما على الفور، لأن الفاشيين يريدون القبض عليهما. اعترض «بالوتا» بأنه لن يتحرك، وكان يقول إن جميع مَن بالبلدة يحبونه، ولن يجرؤ أحد على أن يضره بأي شيء. ولكن «البوريللو»، بوجه جامد كالرخام، كان قد أمسك بحقيبة ملابس، وتسمَّر أمامهما ويداه على حزامه، وقال:

ـ دعونا لا نضيِّع الوقت. اجمعا هنا بعض الأغراض حتى نذهب.

عندئذ استسلم «بالوتا المُسن»، وبدأ ارتداء ملابسه، وهو يتعسر في التعامل مع أزرار حمالته بيديه المنمشتين المغطاتين بالشعر الأبيض المُجعَّد. وسأل:

ـ إلى أين سنذهب؟

ـ إلى «تشينيانو».

ـ إلى «تشينيانو»، إلى «تشينيانو»! ومنزل مَن؟

ـ سأتدبَّر أنا الأمر.

أما السيدة «تشيتشيليا»، وقد أصابها الفزع، فأخذت تدور في حجرات المنزل وهي تجمع ما تقع عليه يداها:

زهرية ورد، تضعها في حقيبتها الصغيرة، ملاعق فضية وصديريات قديمة.

أصعدهما «البوريللو» إلى السيارة. قادها من دون أن يتفوه بكلمة، بأنفه الطويل المشابه لمنقار طائر معقوف على شاربَيه الأسودَين الخشنَين، وفمه الصغير المُغلَق، وقبعتُه مُثبَّتة فوق أذنيه.

قال «بالوتا المُسن»:

ـ أنت يا «بوريللو»، قد تنقذ حياتي، ولكنك ما زلت شخصًا سمجًا، ولا أتحملك.

ولكن هذه المرة، قال «البوريللو»:

ـ ليس عليَّ بالضرورة أن أكون موضع استلطاف سيادتك.

قال «بالوتا المُسن»:

ـ حقيقي.

كان «البوريللو» يستخدم صيغة الاحترام عند التحدث مع «بالوتا المُسن»، لأن «بالوتا» لم يسمح له قَطُّ بالتحدث معه بغير ذلك.

في «تشينيانو»، كان «البوريللو» قد استأجر لهما شقة

صغيرة. كانا يقضيان يومهما في المطبخ حيث توجد المدفأة. وكان «البوريللو» يزورهما كل مساء تقريبًا.

بالفعل ذهب الفاشيون إلى «الكازيتَّا»، هشموا النوافذ، ومزقوا الأرائك بحِراب بنادقهم.

في «تشينيانو»، ماتت السيدة «تشيتشيليا». انطفأت بهدوء وهي تمسك بيد صاحبة المنزل، التي كانت قد صادقتها. كان «بالوتا المُسن» قد ذهب ليبحث عن طبيب. عندما عاد ومعه الطبيب كانت زوجته قد فارقت الحياة.

لم يستطِع أن يصدق ما حدث، وأخذ يهزها ويوقظها، إذ اعتقد أنها في حالة إغماء ليس أكثر.

في الجنازة لم يكن سواه هو و«البوريللو» وصاحبة المنزل. كان كلٌّ من «باربا تومازو» و«مانيا ماريا» مريضًا بالحمى في منزلهما في «لي بيتري».

قال «بالوتا المُسن»:

ـ حمى الخوف.

بعد ذلك لم يعُد «البوريللو» يظهر، وهكذا ظل «بالوتا» وحيدًا، حتى إنه كان يكاد يشتاق إلى «البوريللو». كان في كل لحظة يسأل صاحبة المنزل:

ـ ولكن أين اختبأ «البوريللو»؟

وعُرف بعد ذلك أن «البوريللو» قد هرب إلى سويسرا؛ إذ كان مهدَّدًا بالموت سواء من الفاشيين أو من المقاومين. وحمل مسؤولية المصنع مهندس مُسن، يُدعى «بورزاجي». ولكن لم يعُد «بالوتا المُسن» يهتم بأمر المصنع.

بدأت ذاكرته تضعف قليلًا. كثيرًا ما كان ينام على مقعد في المطبخ، ورأسه مُتدلٍّ، ثم كان يستيقظ فجأة ويسأل صاحبة المنزل:

ـ أين أبنائي؟

كان يسألها بنبرة تهديد، كأنها خبأتهم في حانوت المخزن.

كانت صاحبة المنزل تجيبه:

ـ الذكور، الكبار منهم في الحرب، ألا تتذكر سيادتك أننا في حالة حرب؟ «تومازينو» الصغير في المدرسة الداخلية، أما الإناث فـ«جيمينا» في سويسرا و«رافايلَّا» في الجبال، حيث انضمت إلى صفوفَ المقاومة.

كان «بالوتا المُسن» يقول:

ـ يا لها من حياة!

ثم يعود لينام من جديد، منحنيًا، ثم يعود ليستيقظ فزعًا

من حين إلى آخر وهو ينظر حوله بعينين حائرتين، كأنه لا يُدرك أين هو.

بعد التحرير، أتت «مانيا ماريا» لتأخذه بسيارة، ومعها سائق. تعرَّف هو على السائق؛ إذ كان ابنًا لأحد عماله، واحتضنه. أما «مانيا ماريا» فقد مد إليها إصبعين هزيلتين، ناظرًا إليها بارتياب، وقال:

ـ لم تحضري حتى إلى جنازة «تشيتشيليا».

قالت «مانيا ماريا»:

ـ لقد كانت درجة حرارتي أربعين.

أخذاه إلى «الكازيتَّا». كانت «مانيا ماريا» قد كنست الزجاج المهشم، ونظمت الغرف قليلًا بمساعدة الفلاحة، ولكن لم يعُد هناك مراتب ولا ملاءات، ولا أدوات للمائدة أو أطباق. كانت الحديقة في خراب تام، هناك حيث كانت السيدة «تشيتشيليا» تظهر في وقت ما وهي تَعبُر بين الورود ترتدي مئزرها الأزرق، والمقص معلَّق في حزامها، وفي يدها رشاشة الزرع.

ذهب «بالوتا المُسن»، مع «مانيا ماريا» إلى «لي بيتري». هناك كان «باربا تومازو»، لم يتغير، ورديُّ اللون، بقميصه النظيف وبنطلونه الصوفي الأبيض.

جلس «بالوتا المُسن»، ثم انفجر في النحيب ممسكًا منديله كأنه طفل.

قال:

ـ لحُسن الحظ أن «تشيتشيليا» قد ماتت، حتى لا ترى كل هذا الخراب!

أخذت «مانيا ماريا» تربت على رأسه، وتردد:

ـ حسنًا، حسنًا، أنت رائع، يا لك من رائع!

قال «باربا تومازو»:

ـ كنتُ أول من رأى قوات المقاومة. كنت أقف أمام النافذة ممسكًا نظارتي المُكبِّرة، مع الجنرال «سارتوريو»، ورأيتهم وهم يسيرون في الطريق. ذهبت لأستقبلهم ومعي زجاجتا نبيذ، لأنني فكرت في أنهم سيكونون عطشى.

وقال:

ـ في المصنع، أخذ الألمان الماكينات، ولكن لا يهم، فالآن سيعطينا الأمريكان ماكينات جديدة.

قال «بالوتا المُسن»:

ـ اخرس أنت، فأنت ما زلت غبيًّا.

قالت «مانيا ماريا»:

ـ لقد كان «بورزاجي» ماهرًا بالفعل، لقد أخذه الألمان هو أيضًا، ولكنه ألقى بنفسه من القطار بسرعة، وكسر كتفه.

وقالت:

ـ هل عرفت أنهم قتلوا «نيبيا»؟

ـ «نيبيا»؟

ـ نعم، أخذه الفاشيون، وأعدموه، في هذا المكان خلفنا، فوق تلك الصخور هناك. كان الوقت ليلًا، وسمعنا صوت صراخ. في الصباح عثرت الفلاحة على وشاحه، ونظارته مهشمة تمامًا، وعلى قبعته؛ تلك المصنوعة من الجلد التي كان يرتديها طوال الوقت.

نظر «بالوتا المُسن» إلى شمس الغروب، على ذلك المنحدر من الحجارة خلف المنزل، الذي بسببه أطلقوا على المنزل اسم «لي بيتري»، وأخذ ينظر إلى غابات الصنوبر التي تغطي ذلك المنحدر من الهضبة، وإلى الجبال هناك وراء الهضبة، بقممها الحادة التي يغطيها الجليد، والأنهار الجليدية ذات الظلال الطويلة الزرقاء، وقمة ناصعة البياض مستديرة، مثل الخبز بالسُّكَّر، تُدعى«لو شيفولو»، حيث كان أبناؤه يذهبون مع أصدقائهم في رحلات أيام الآحاد.

في اليوم التالي دعاه العمدة ليقدم خطابًا لتحية التحرير. أتوا به إلى شرفة البلدية، وفي الأسفل كان يقف كثيرون، كان الميدان ممتلئًا. كان الناس يقفون حتى الطريق البعيد، تَسلَّق بعضهم الأشجار وأعمدة التلغراف. رأى هو وجوهًا كان يعرفها، عُماله، ولكن مع ذلك شعر بالخجل من أن يتحدث. استند بيديه إلى السور وقال:

ـ تحيا الاشتراكية!

ثم تذكر «نيبيا». رفع قبعته وقال:

ـ يحيا «نيبيا»!

تعالى التصفيق قويًّا جدًّا، كصوت الرعد، وشعر هو بالفزع قليلًا، ثم تحوَّل الفزع على الفور إلى متعة كبيرة.

أراد أن يتحدث مرة أخرى، ولكن لم يعُد يعرف ماذا يمكنه أن يضيف. أخذ يتنفس بصوت مسموع، ويحرِّك بأصابعه ياقة سترته. قادوه بعيدًا عن الشرفة، فالآن حان وقت خطاب العمدة.

في طريق العودة إلى المنزل قال له «باربا تومازو»:

ـ ولكن «نيبيا» لم يكن اشتراكيًّا، بل كان شيوعيًّا.

قال «بالوتا المُسن»:

ـ لا يهم، وأنت التزم الصمت، لأنك ما زلت غبيًّا.

في المنزل وضعته «مانيا ماريا» في الفراش، لأنه كان مُضرَّجًا بالحمرة، ويشعر بالبرد، ويتنفس بصعوبة.

وفي الليلة نفسها مات.

في البلدة قالوا:

ـ يا للتعاسة! مات «بالوتا المُسن»! الآن لا أحد يعرف أين أولاده، وبقي المصنع في قبضة «البوريللو».

وقالوا:

ـ كل هؤلاء الأبناء، ولا أحد منهم بجواره في لحظة موته.

في اليوم التالي لموته وصلت الابنة الصغيرة «رافايلَّا»، التي كانت في الجبل حيث انضمت إلى قوات المقاومة. كانت ترتدي بنطلونًا وتربط منديلًا أحمر حول عنقها، وتضع مسدسًا في جرابه.

كانت تتشوق إلى أن يراها أبوها وهي تحمل ذلك المسدس. وصلت إلى «لي بيتري» ووجدت «مانيا ماريا» أمام البوابة، ترتدي برقعًا من الكريب الأسود على رأسها، وهي تبكي وتقول:

ـ يا للتعاسة! يا للتعاسة!

ثم احتضنتها وأخذت تردد:

ـ حسنًا، حسنًا، كم أنتِ رائعة!

وقالت:

ـ ولكن هل هذا المسدس يطلق النار بالفعل؟

* * *

في أثناء الحرب نزحنا جميعًا في البداية إلى «كاستيللو»، ثم إلى «كاستيل بيكولو»، خوفًا من أن يقصفوا بلدتنا، بسبب المصنع. في «كاستيللو»، كانت أمي تربي دجاجًا وديوكًا وأرانب، وكانت أيضًا تقيم خلايا للنحل. ولكن لا بد أنه كان في الخلايا عيب، لأن النحل مات كله مع تساقط الثلج.

في «كاستيل بيكولو» لم تعُد ترغب في تربية الحيوانات. كانت تقول إنه كان عليها أيضًا العناية بالحيوانات، ثم ترتبط بها، ولا ترغب بعد ذلك في طهيها.

الآن لدينا حيوانات متنوعة في حظيرتنا، التي نطلق عليها اسم «لا فينيا»، والموجودة بالقرب من غابات «كاستيللو»، على بُعد نحو كيلومتر من منزلنا. تذهب أمي إلى هناك مرة أو مرتين في الأسبوع، ولكنها لا تصادق الحيوانات، تترك الفلّاحة لتربيها، وتقوم «أنطونيا» بذبحها، ونزع ريشها أو جلدها، وتحرِّكها أمي في القِدْر من دون أن تشعر بشيء

لأنها لا تتوقف وتفكر إن كانت في البداية يغطيها الريش أم يكسوها الجلد.

بعد التحرير، طُلب من أختي أن تعمل مترجمةً، لأنها كانت تتحدث الإنجليزية جيدًا. وقع في حبها كولونيل أمريكي، وتزوجا ورحلا إلى جوهانسبرج، حيث يمتلك زوجها، بصفته المدنية، مصنعًا هناك.

ذهبت أنا إلى جامعة المدينة، وكنت أسكن مع الابنة الصغرى من «صغيرات بوتيليا»، في سكن تابع للكنيسة البروتستانتية. أنهت «جوليانا بوتيليا» دراسة الحقوق، وأنهيت أنا دراسة الآداب، ثم عادت كلتانا إلى البلدة.

أذهب إلى المدينة مرة أو مرتين أسبوعيًّا، لسبب أو لآخر: أن أبدل الكتب في مكتبة «سيليكتا» لخالتي «أوتافيا»، أو أن أبتاع لأمي شلَّات الغزْل للتطريز وبسكوت الشوفان، أو أن أبتاع لأبي التبغ الإنجليزي الخاص لغليونه.

أذهب عادة بالحافلة التي ترحل في الثانية عشرة والنصف من الميدان، وفي المدينة أنزل في شارع «بياتشينزا»، على بُعد خطوتين من شارع «الستاتوتو» حيث توجد مكتبة «سيليكتا».

الدورة الأخيرة للحافلة في الساعة العاشرة مساءً.

* *

كنت أجلس على المقعد الكبير وأضغط بيدَيَّ على جوانب المدفأة، ثم أنزعهما عندما أشعر بالحرارة العالية، وأضعهما على وجهي، ثم أعود لأضعهما من جديد فوق المدفأة... وهكذا مر نصف ساعة.

دخلت «جوليانا بوتيليا».

كانت ترتدي جوارب سوداء، كما كانت الموضة في تلك الفترة، وقفازين أسودين من المخمل، ومعطفًا واقيًا من المطر أبيض وقصيرًا جدًّا، وعلى رأسها منديل من الحرير الأسود.

قالت:

ـ هل أزعجك؟

جلستْ، نزعت القفازين والمنديل، وبدأت تصنع التموجات في شعرها بالمشط. بعد ذلك هزَّت شعرها الأسود المرتفع، الذي تتدلى منه خصلات كالفصلات على جبهتها، هزةً خفيفة.

قالت:

ـ اليوم ذهبت إلى دار السينما في «تشينيانو».

ـ ماذا كانوا يعرضون؟

ـ «الظلمات المحرقة».

ـ ولمَ كانت الظلمات محرقة؟

قالت:

ـ لأنه كان مهندسًا، أصبح أعمى، وكانت هي امرأة من الشارع، ولكن هو لم يكُن يعرف، وظنها شريفة، وتزوجا، وسكنا في شقة رائعة الجمال، ولكن بدأت تساوره الشكوك.

ـ ولماذا الشكوك؟

ـ لأنها كانت قد قالت له في البداية إنها فقيرة، ولكنه اكتشف أنها لم تكُن فقيرة جدًّا، لأنها كانت تملك علبة مصوغات. اكتشف ذلك لأن الوصيفة أخبرته بأنها رأت معها علبة المصوغات تلك.

ـ في البداية؟

ـ نعم، في البداية، ثم سمعها في إحدى الأمسيات، وهو في الشرفة، تتحدث مع شخص، كان موظفًا في بنك واقعًا في حبها، ويعرف حقيقة ماضيها، وكان يبتزها. كان يقول لها إما أن تطارحه الغرام وإما أن يذهب إلى الأعمى ويقول له كل شيء. وكان موظف البنك هو «يول براينر».

ـ ذلك الأصلع؟

ـ نعم. عندئذ يوافق المهندس على إجراء عملية، إما أن يموت وإما أن يرى من جديد. وتُجرَى العملية له، ويرى. في البداية تكون الرؤية مضطربة، ثم يرى بوضوح، وكانت هي تقف أمامه هناك في غاية الجمال، وهي ترتدي فراءً من المنك، واحتضن هو فراءها، وبكى!

ـ بكى؟

ـ نعم. ثم ذهبا إلى إجازة في فيلَّا، ولكن ذهب أيضًا «يول براينر». وفي الليل بحث عنها «يول براينر» ووجدها في النهاية في صالون جميل، ومعها كتب، مكان يشبه المكتبة، وأراد أن يُقبلها... وصل المهندس ووجدهما معًا.

ـ وماذا حدث؟

ـ هرب «يول براينر»، وتبعه المهندس، وانتهى بهما الأمر على إفريز النافذة، وهي أيضًا صعدت على الإفريز لتنقذ المهندس، وسقطت.

ـ ماتت؟

ـ نعم.

ـ والمهندس؟

ـ المهندس أطلق الرصاص على موظف البنك الذي مات، ولكن قبل أن يموت في المستشفى قال للمهندس إنها كانت نقية مثل القديسة. وأُصيب المهندس بالعمى من جديد.

ـ أصيبَ بالعمى من جديد؟

ـ نعم.

ـ لماذا أُصيب بالعمى من جديد؟

ـ لأن عينيه كانتا لا تزالان حساستين، ويبدو أن الشبكية انفصلت من الانفعال.

ـ كان فيلمًا غبيًّا.

ـ ليس إلى هذه الدرجة؛ كانوا يمثِّلون جيِّدًا.

ـ وذهبتِ حتى «تشينيانو» لتشاهديه؟

ـ نعم، حتى «تشينيانو».

ـ بالحافلة؟

ـ بالدراجة، مع «ماريا» أختي و«ماريا موسو».

ـ هل كان الصيني لطيفًا؟

ـ أي صينيٍّ؟

ـ ذلك الذي كان في الحفلة الراقصة في منزل «تيرنزي».

ـ لم يكُن صينيًّا، كان هنديًّا، وكانت سِنُّه على الأقل سبعين عامًا. أحضره «جيجي سارتوريو».

كانت تمسح قفازَيها على حجرها، رويدًا رويدًا، وبعينين منخفضتين وهي تميل رأسها قليلًا، قالت:

ـ كان «تومازينو» هناك.

ـ أين؟

ـ في حفل «تيرنزي» الراقص.

ـ هل كان هناك؟

ـ نعم، كان هناك.

ـ ثم؟

ـ لا شيء، كان هناك فقط.

استمرَّت في مسح القفازين من دون أن تنظر إليَّ، وقالت:

ـ لم تعودي تقولين لي أي شيء. يومًا ما، كنت صديقتك.

كنت أخلط الرماد في المدفأة. قلت:

ـ لا أقول لكِ أي شيء عن ماذا؟

ـ آتي إلى هنا، نتكلم عن تفاهات. أُشعِركِ بالملل. أعلم.

ـ لا أشعر بالملل على الإطلاق، لقد تسلَّيت بقصة المهندس.

ـ إني أُشعِرك بالملل. أعلم ذلك.

ارتدت القفازين، وربطت حزام معطفها الواقي من المطر:

ـ لا بد أن أذهب الآن.

وعلى الباب، من دون أن تلتفت، قالت لي:

ـ لقد رأتاك.

ـ ماذا؟

ـ لقد رأتاك مع «تومازينو».

ـ مَن؟

ـ «ماريا» أختي و«ماريا موسو». لقد رأتاكما في بار ما.

ـ ثم؟

ـ ثم، لا شيء.

* *

صرخت أمي من أسفل السلالم:

ـ «جوليانا»! أي حفلة لدى عائلة «تيرنزي»؟

ـ لا أعلم.

ـ لأننا قابلنا «جيجي سارتوريو» وكان يحمل سلطانية.

ـ لم يكُن ذاهبًا إلى عائلة «تيرنزي»، بل إلى عائلة «موسو»، ليحضر لهم بعضًا من حلوى «السابايوني»، لأنهم كانوا قد أعدوا منها كثيرًا، وفاضَت لديهم. أعطونا بعضًا منها أيضًا.

قالت أمي:

ـ ولكن ما الكمية التي أعدوها؟ برميل؟

وقالت:

ـ يا لها من فكرة، وضع «السابايوني» في سلطانية!

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ وأين يجب أن يضعوها؟

ـ في وعاء من الكريستال، بحق السماء!

قالت «جوليانا»:

ـ أما نحن، فلأننا لا نحب تناول حلوى «السابايوني» بمفردها فقد أعددنا بجوارها بعض «البينيي».

قالت أمي:

ـ أما نحن فنفضل أن نأكل أكلًا خفيفًا جدًّا في المساء.

كان يمكن قراءة الأسى على وجهها، بأنه تم استبعادنا من وليمة «السابايوني».

* * *

أبناء «بالوتا» خمسة.

الكبرى هي «جيمينا». سنها الآن أكثر من أربعين عامًا. لم تتزوج، وتعيش في «الكازيتَّا». عندما عادت من سويسرا قالت:

ـ لن يأخذ مني أحد «الكازيتَّا».

أراد إخوتها أن يذهبوا ليعيشوا معها، بعد أن عادوا إلى البلدة، ولكن أصرت هي على أن تردد:

ـ «الكازيتَّا» كان منزل أبي وأمي، ولن يأخذه أحد مني.

باءت بالفشل محاولة أن يشرح لها أحد أن والديها، هما أيضًا والدا إخوتها الآخرين، لا والداها هي فقط.

مكثت «جيمينا» في «الكازيتَّا» وحدها، مع امرأة تخدمها، مربية قديمة، ربَّت إخوتها واحدًا تلو الآخر.

أراد كلٌّ من «فينتشينزينو» و«ماريو» أيضًا أن يأخذ تلك المرأة؛ إذ كان لديهما أطفال.

ولكن «جيمينا» قالت:

ـ لن يأخذ أحد مني المربية، ويا لشقاء مَن يحاول انتزاعها مني.

«جيمينا» طويلة ورفيعة، شعرها مصبوغ وقصير، وجهها طويل ورفيع، ذقنها مدبَّب، لون بشرتها مبقَّع، يميزها آثار طفح جلدي قديم ترك عليها آثارًا كالشحوب.

في الشتاء ترتدي معطفًا من صوف «الكازنتينو»، وبيريهًا من الصوف الخشن، وجوارب التزحلق على الجليد. لديها دائمًا ما تفعله، وتسرع إلى هنا وهناك، في سيارتها «الفيات ٥٠٠»، من «كاستيللو» إلى «تشينيانو»، ومن «تشينيانو» إلى «كاستيللو». في «كاستيللو» أسَّسَت مستشفى، وفي «تشينيانو» محلًّا للأشغال اليدوية. تظهر خلف واجهة المحل الزجاجية جوارب مصنوعة من التريكو، وزهريات منحوتة من الخشب، ولوحات لجبال الألب.

في طريقها تشتري التفاح للمستشفى من «سوبرانو»، حيث ثمنه أقل.

تحب جدًّا تنظيم حفلات شاي من أجل الأعمال الخيرية. كانت تأخذ معها في السيارة ثماني أو عشر فتيات، وتبعث واحدة منهن لـ«مانيا ماريا»، لتأتي لها ببعض الجوز، لأن لديهم كثيرًا في منزل «لي بيتري»،

لتضعها شرائح على ساندويتشات الجبن، وترسل أخرى إلى الفرن في «تشينيانو» لتحصل على بقايا البسكوت، الذي يمكن أن تطحنه في مطحنة القهوة وتعجنه ببعض بودرة الكاكاو، لينتج نوعًا من الحلوى، ليس جيدًا، ولكن يمكن تناوله.

وهي بخيلة جدًّا، ولا تنفق مما تمتلكه أي شيء، لا نقودًا ولا أي شيء آخر، ولكنها تنجح في أن تأخذ من الجميع، من أجل مستشفاها، ومن أجل أعمالها التجارية الأخرى، نقودًا وأشياء.

أقصى ما تقوم به هو أن تصطاد في منزلها، لليانصيب وللحفلات الراقصة، بعض الأشياء التي لا تعلم ماذا تصنع بها: بيض عيد الفصح من الورق المقوَّى، فوطًا من الحرير، برَّامات لفتح السدادات على شكل قلب، وبعض وسادات الدبابيس.

عندما أقامت المستشفى كانت تمكث هناك منذ الصباح لتتابع العمل، بمعطفها «الكازنتينو»، وأنفها المحمر من البرد، وتلك البقع على وجهها التي تصبح أكثر زُرقةً في البرد، وحذاء الجبل في قدميها، والسيجارة في مبسم من العقيق اليماني.

تحب حفلات الاستقبال والاحتفالات؛ عندئذ ترتدي

ملابسها بأناقة شديدة، بفراء الكيب، والمصوغات، وبعض فساتين السهرة التي تصنعها لها خيَّاطة مشهورة في المدينة.

يعجبها، في تلك الحفلات، أن تقابل كونتيسات، لأن ذلك يمنحها شعورًا بالفخر.

تجري دائمًا من هنا إلى هناك، من الصباح حتى المساء. تقف لتتحدث مع الجميع، لأنها تعرف جميع من بالمنطقة. تقول لكل منهم وهي تغلق عينيها وتتنهد:

ـ أنا مُنهَكة.

تعود إلى المنزل متأخرة في المساء، وتلقي بنفسها على الأريكة، وتضع وسادة أسفل قدميها لتساعد على تدفق الدماء.

تقول:

ـ أنا مُنهَكة.

وتمكث هناك وهي مغمضة العينين، في محاولة للاسترخاء، وعدم التفكير في شيء، لأنها قرأت في مجلة ما أن الاسترخاء يُريح الجلد.

ـ يا مربية، القِربة الساخنة، والسجل.

تتقدم المربية، ضخمةً، منحنيةً، بقدمين رقيقتين، ومريلة بيضاء مُنشَّاة، ووجه دائمًا عابس، مجعَّد وداكن كأنه من الجلد.

تأخذ «جيمينا» في تصفح السجل. فيه حسابات تجارتها، وعمليات معقدة من الصادر والوارد.

لم يكُن «بالوتا المُسن» يجدها غبية على الإطلاق، وكان يقول إنها جُبلت للتجارة، غير أنه كان يقول:

ـ للأسف ليس بها أي أنوثة، ثم إن بشرتها قبيحة جدًّا. للأسف لم تصبح مثل أمها، التي كانت في شبابها كالوردة النضرة.

كانت «جيمينا» تحب «نيبيا».

كان أمرًا مؤلمًا، لأنها أصبحت، بسبب الحب، أكثر قبحًا ونحافة. حتى تحوز إعجابه كانت تطلي وجنتيها وشفتيها بالأحمر القرمزي. كانت تتزين بطريقة سيئة، بلا فن، لأنها تعلمت في وقت متأخر جدًّا كيف تضع مساحيق التجميل، في سويسرا، حيث لها صديقة تعمل في مركز للتجميل. وكانت تستخدم بودرة داكنة جدًّا، تقريبًا بنية اللون، لتخفي البقع على بشرتها. كانت تنتظره عند بوابة الخروج من المصنع، في كل مساء، وكان الجميع يعرفون

أنها تنتظر «نيبيا». فقط «النيبيا» لم يكُن يفهم، لأنه كان ساذجًا وغبيًّا في ما يتعلق بأمور الحب، وكان شاردًا.

كان «نيبيا» يخرج من المصنع، بأذنيه الجاحظتين، الحمراوين دائمًا، ونظارته المؤطرة بصدف السلحفاة، وفمه الكبير الجاد.

كان يقول:

ـ ماذا تفعلين هنا حضرتك؟ لقد ترك أبوكِ المصنع منذ فترة.

كانت تقول:

ـ هل يمكنك أن توصلني؟

كان يجعلها تصعد على ماسورة الدراجة، ويأخذها إلى المنزل، كان يتركها على مسافة من «الكازيتَّا»، عند بداية المطلع، ويعود ليجلس على مقعد الدراجة.

كانت تقول:

ـ هل سنذهب إلى الجبل يوم الأحد؟

ـ بالتأكيد.

كانا يذهبان، أحيانًا بمفردهما، وأحيانًا أخرى مع إخوتها، أو مع «البوريللو»، أو مع بعض الموظفين الآخرين في

المصنع. كانت هي تدربت في مدرسة لتسلق الجبال، في أثناء أحد الأصياف على جبال «الدولوميت». كانت فخورة بأنها شجاعة، لا تخاف أبدًا، وبأنها لا تمكث في المؤخِّرة، ولا تعاني دوار الجبل.

كان «نيبيا» يقول:

ـ لديكِ نفَس قوي كالحصان.

كانا يذهبان أحيانًا بمفردهما، وفي إحدى المرات فاجأتهما العاصفة على قمة الجبل، وكان لا بد من الاحتماء بجُرف وقضاء الليلة هناك.

ارتديا كل البلوفرات التي معهما. كان هو معه في حقيبته قماش مقاوم للأمطار، لفَّاه حول أقدامهما. شربا بعض الكونياك، ونام «نيبيا» نومًا عميقًا.

أما هي فلم تستطع أن تغمض عينيها؛ كانت تسمع أصوات الرعد والرياح التي تصفر فوق بحيرات الجليد، ومن حين إلى آخر سقوط بعض الحجارة. وكانت تنظر إلى «نيبيا» المستغرق في النوم، بوجهه الطويل، وفمه الكبير المغلق في جدية شديدة، والمتشقق من شدة البرد، والمدهون كله بالفازلين.

عندما حل الصباح، ظهرت الشمس، وبدأ هو في جمع

كل المؤن التي تَبقَّتْ معهما، والقَصعات وأدوات التسلق. قال:

ـ هيا لننزل بسرعة؛ لا بد أن أهلكِ قلقون عليك.

كانت هي تشعر بأنها مدمَّرة تمامًا، وتشعر بالبرد الشديد ورغبة في البكاء. ولكنها لم تقُل أي شيء، ولبست القفازات الصوفية وأخذت تنفخ فيها حتى تدفئها.

ربط هو الحبل في وسطها، وربط نفسه أيضًا، وارتدى الحقيبة وبدآ في النزول.

بانتهاء الصخور، ألقيا نفسيهما إلى أسفل حيث المراعي، وأخذا في الجري وحقيبتاهما ترقصان فوق ظهريهما.

قابلا فرقة الإنقاذ، التي أرسلها «بالوتا» إليهما، وكان من أفرادها أيضًا «فينتشينزينو» و«ماريو» و«البوريللو». وفي «الكازيتًا» كانت السيدة «تشيتشيليا» تبكي بالفعل إذ اعتقدت أنهما قد ماتا.

ألقت «جيمينا» بنفسها في حوض ماء ساخن، وكانت تسمع أمها في الحجرة المجاورة وهي تقول:

ـ لن أدع «جيمينا» تذهب مرة أخرى بمفردها مع «نيبيا». إنه يأخذها حيث مناطق الخطر. ثم إنهم يتحدثون في البلدة بالفعل، فهي تكون دائمًا بمفردها مع «نيبيا».

وقال «بالوتا المُسن»:

ـ الآن أصبح هذا شيئًا عاديًّا، ولا يوجد شيء غريب. الآن يذهب رجل وامرأة بمفردهما في رحلة، إلى الجبل، وإلى كل مكان. إنه نمط هذا الزمن. لا يمكن للمرء أن يتحرك عكس الزمن.

وقال:

ـ إن كليهما يعشق الجبل. سترين أنه سيتزوجها. إذا تزوجها فسأسعد كثيرًا.

ولكن، «جيمينا» كانت تجلس ببُرنُس الحمَّام على مقعد صغير وتبكي، لأنهما قد قضيا الليلة بمفردهما، هي و«نيبيا»، على حافة الجبل، ولم يُعطِها هو ولا حتى قُبلة.

رآها والداها وهي تقترب من المائدة بعينيها المنتفختين من البكاء، واعتقدا أنها مصابة بانهيار عصبي بسبب الفزع أو التعب.

كان «نيبيا» يحضر أحيانًا ليتعشى لديهم. كان يناقش أمور المصنع مع «بالوتا المُسن»، وكان دائمًا يخطِّئه، لأن «نيبيا» لم يكُن يخجل من أي شخص في العالم. كان «بالوتا» بعد ذلك يذهب إلى فراشه، لأنه اعتاد النوم مبكِّرًا، وكان «نيبيا» يمكث هناك مع «جيمينا» والسيدة «تشيتشيليا»، اللتين كانتا

تغزلان الصوف، أما هو فقد كان يغلبه النعاس بالتدريج، بوجهه الطويل الأحمر المستلقي على مسند الأريكة، وبفمه الكبير الذي يبتسم أحيانًا، في نومه، ابتسامة غامضة.

كان «نيبيا» مشهورًا بالنوم بعد العشاء. كان يقول وهو ينظِّم شعره المجعَّد، ويتناول قبعته ومعطفه الواقي من المطر:

ـ اعذراني إذا كان غلبني النعاس قليلًا.

كانت «جيمينا» تصحبه حتى البوابة، وكان هو يصعد على دراجته، ويشق طريقه إلى فندق «كونكورديا»، حيث كان يعيش.

في إحدى الأمسيات التي مكث فيها «جيمينا» و«نيبيا» بمفردهما، لأن «بالوتا» كان قد ذهب لينام، وكانت السيدة «تشيتشيليا» و«رافايلَّا» تقضيان ليلتهما في المدينة. وضعت «جيمينا» شغل الصوف على المائدة، وأزالت شعرها من فوق جبهتها، وقالت:

ـ أعتقد يا «نيبيا» أنني وقعت في غرامك.

ثم خبأت وجهها بين يديها، وبدأت في البكاء.

مكث «نيبيا» مذهولًا وأذناه مُضرَّجتان بالحمرة، وعجز عن الكلام، بفمه الكبير المتموج، المشقق دائمًا من البرد.

قال:

- يؤسفني هذا.

ساد صمت طويل، واستمرت «جيمينا» في البكاء، وأخرج هو منديلًا كبيرًا، مكرمشًا ومتسخًا قليلًا، ومسح لها وجهها.

قال بصوت منخفض جدًّا ومبحوح:

- إني أشعر بالصداقة الشديدة نحوك، ولكن لا أشعر بأنني أحبك.

مكثا هناك بعض الوقت جالسَين، من دون أن يقولا أي شيء آخر، كانت «جيمينا» تقرض في ظفر إبهامها، ومن حين إلى آخر تطلق صوت نشيج آخر. ولكن فجأة وصل «بالوتا»، وهو يرتدي البيجاما، فقد كان يريد الصحيفة، وسارع «نيبيا» بوضع منديله في جيبه، وأمسكت «جيمينا» مرة أخرى بإبرتَي الصوف.

ثم ارتدى «نيبيا» معطفه الواقي من المطر، ضغط على رأسه قبعته الصوفية، المكرمشة تمامًا، وخرج.

خطب، بعد ذلك بفترة وجيزة ابنةَ صاحب الصيدلية في «كاستيللو»، فتاة تُدعى «بوباتزينا». كانت سِنُّها لا تتجاوز تسعة عشر عامًا، وكانت قصيرة القامة، ممتلئة،

بشعر متموج؛ كانت تتجول وهي ترتدي بلوزات قصيرة منتفخة، تضيق عند الخصر بحزام مرتفع أسود لامع، وكانت تتأرجح فوق كعبيها المرتفعين جدًّا. أرادت امتلاك سيارة على الفور رغبة منها في أن تصبح سيدة راقية، ومسكنًا مؤثَّثًا على طراز القرن العشرين، ونباتات عصارية على النوافذ. لم تكُن تطيق الجبل، لا شتاءً ولا صيفًا، وكانت تعاني كثيرًا من البرد. لم تكُن ماهرة في ركوب الدراجات. كانت تحب الحفلات الراقصة، وتزوجت «نيبيا» الذي لم يكن يعرف كيف يرقص.

شعر «بالوتا المُسن» بالغضب الشديد تجاه «نيبيا»، لأنه تزوج تلك الإوزة، ولم يرغب في أي من ابنتيه، لا «جيمينا» ولا «رافايلَّا».

قررت «جيمينا» الذهاب إلى سويسرا. كانت لها في سويسرا صديقة، ووجدت هناك عملًا في شركة للسياحة.

عادت فقط عندما انتهت الحرب. كانت «بوباتزينا»، ومعها ابناها اللذان أنجبتهما من «نيبيا»، قد ذهبت لتعيش في «سالوتزو».

لم ترغب «جيمينا» قَطُّ في الذهاب لرؤية المنخفض خلف «لي بيتري»، حيث قتلوا «نيبيا».

أحيانًا عندما تقود سيارتها «الفيات»، تغني «جيمينا» أغنية. الأغنية تقول:

ليندا آه يا ليندا، يا حب حياتي،

أنتِ مستـــريـحـــة فـــي الداخــــــل،

وأنــا فــي الخـــارج ألتحــف السمـــــاء،

أنتِ في الداخل تأكليـن شرائـح اللحـم،

وأنا أقف هنا في الخارج، في البرد القارس،

ليندا آه يا ليندا، يا حب حياتي،

أنتِ مستـــريـحـــة فـــي الداخــــــل،

وأنــا فــي الخـــارج ألتحــف السمـــــاء.

كانوا يغنون تلك الأغنية كالجوقة، هي و«نيبيا» و«فينتشينزينو» و«البوريللو»، في الحافلة في طريق عودتهم من الجبل.

كان «نيبيا» يغني بنشاز. تشعر هي حتى الآن أنها تسمع صوته. عندما تردد تلك الأغنية، تستعيد كل شبابها، كل تلك الأمسيات السعيدة التي كانوا يعودون فيها فرحين من الجبل، تستعيد لحظات التعب ورائحة الصوف والجلد، الثلج الذائب أسفل أحذيتهم، وألم كتفيها من أحزمة

الحقائب، تستعيد مذاق الشوكولاتة التي انتهى نصفها في الوعاء المعدني، والبرتقال، والنبيذ.

لم تذهب قَطُّ بعد ذلك إلى الجبل. لا تزال تحتفظ، داخل صندوق، بكوب من الصفيح، منبعج تمامًا. إنه ذلك الذي شربا منه، هي و«نيبيا»، ليلة العاصفة.

* * *

بعد «جيمينا»، يأتي «فينتشينزينو»، ثم «ماريو» و«رافايلَّا»، والابن الأخير «تومازينو». هؤلاء هم أبناء «بالوتا».

كان «فينتشينزينو» صبيًّا قصير القامة، سمينًا، أشقر، وشعره مجعَّد مثل الحَمَل. كان دائمًا متسخًا وغير مهندم، وكانت خصلات شعره المجعَّدة دائمًا طويلة جدًّا على رقبته، وجيوب معطف المطر مليئة بالنشرات والصحف، وحذاءاه مفكوكي الأربطة، لأنه لا يجيد ربط العُقد، ونعلا حذاءيه مغطيين بالطين؛ لأنه كان يتجول في الحقول.

كان «بالوتا المُسن» يقول:

ـ يبدو لي مثل حاخام يهودي.

كان يتجول في الحقول وحده. كان يتوقف، أحيانًا، ثابتًا أمام حائط أو بوابة ما، حيث لا يظهر سوى بعض شجيرات

القُراص ذات الوبر الشائك، أو أحراش الكزبرة، وكان ينظر وينظر، ولم يكُن أحد يفهم إلامَ ينظر.

كان يسير على مهل، وهو يُخرج من جيبه، من حين إلى آخر، صحيفة أو كتابًا، يأخذ في قراءته في أثناء سيره، منحنيًا، وجبهته مجعَّدة. عندما كان يفتح كتابًا، كان يبدو كأنه يُسقط أنفه بداخله.

كان يحب الموسيقى، وكان لديه في غرفته آلات نفخ لا حصر لها. في وقت غروب الشمس كان يبدأ في عزف الأُبوا أو الكلارينت أو الناي.

كان يُسمَع نوع من الأنين الحزين جدًّا، والشكوى والضعف مثل النواح، وكان «بالوتا المُسن» يقول:

ـ هل يجب عليَّ سماعه وهو ينوح بهذه الطريقة؟

في المدرسة لم يكن «فينتشينزينو» ناجحًا جدًّا. كان يأخذ دروسًا خصوصية كل السنة، ويرسب دائمًا. بينما كان «البوريللو» و«ماريو»، الأصغر سنًّا، يتقدمان في الدراسة، ويظل هو متخلفًا عنهما.

لم يكن أحد يفهم كيف يمكن أن يحدث هذا؛ إذ كان يقرأ كُتبًا كثيرة ويعرف أشياءَ كثيرة جدًّا.

كان يتحدث دائمًا بصوت منخفض، بهمس مرتبك، وكان

يجيب عن أكثر الأسئلة بساطة بأفكار مرتبكة ومشتَّتة، كانت تتضح على مهل، على الموجة الحزينة لذلك الهمس.

كان أبوه يقول:

ـ أنا لا أتحمله.

وكان يقول في وقت الغسق مستمعًا إلى أنين الناي:

ـ إذا استمر في هذا النحيب فسأرسله إلى «لي بيتري».

وأرسله بالفعل، ولكن لفترة وجيزة، إلى «لي بيتري». ولكن أعاده مرة أخرى؛ إذ كان يريد أن يعيد فحصه، وأن يفهم جبلته.

كان يقول لزوجته:

ـ ولكن لا يمكن أن يكون غبيًّا فعلًا.

أخذه إلى المصنع، وقاده ليقف أمام الماكينات. كان «فينتشينزينو» ينظر عابسًا، مرتبكًا، منحنيًا قليلًا، عاقدًا حاجبيه.

كان ينظر بتركيز، ويجعِّد أنفه، بالطريقة نفسها التي ينظر بها إلى حائط أو شجرة أو أحراش القُراص.

أنهى دراسته في ثانوية «ساليتشي»، وعندما حصل أخيرًا على شهادة البكالوريا التحق بالجامعة في المدينة.

كان والده يرغب في أن يلتحق بكلية العلوم الاقتصادية كما فعل «ماريو»، الذي كان بالفعل في عامه الثاني هناك، إلا أنه التحق، مثل «البوريللو»، ليدرس الهندسة.

وكان في هذا الأمر حاسمًا. رفع «بالوتا» كتفيه وقال لزوجته:

ـ لن يستطيع أبدًا التخرُّج في كلية الهندسة؛ صعبة جدًّا، ولكن إذا كان هذا ما يريده... على كل حال أنا لا أفهمه. إنه مجنون وأنا لا أتفاهم مع المجانين.

كانوا يسكنون، هو و«البوريللو» و«ماريو»، في مسكن مفروش وبه امرأة تخدمهم.

كان «البوريللو» يذهب إلى الفراش مع تلك المرأة. كانت امرأة متقدمة في العمر، سمينة وثقيلة. كان «فينتشينزينو» يسمع وهو جالس في غرفته، عبر الحائط، ضحكة «البوريللو» العالية وتوسلاتها الأمومية والمجهدة.

كان «فينتشينزينو» يبغض «البوريللو».

تَعرَّف في كلية الهندسة إلى «نيبيا». كانا يتقابلان دائمًا في المحاضرات، وأخذا يتحدثان في مساء أحد الأيام، في قطار العودة إلى المنزل في عطلة نهاية الأسبوع. كانت عائلة «نيبيا» أيضًا تسكن خارج المدينة.

بدأ «فينتشينزينو» التحدث، بصوته المنخفض. حكى عن ابن عمه «البوريللو»، الذي يسكن معه، وكم كان يكرهه. حكى كيف كان «البوريللو» يغتسل وكيف يأكل، وكيف يضاجع الخادمة، وكيف يمارس التمرينات الرياضية في الصباح، وهو يرتدي لباسه الداخلي ذا الرباط المطاطي الأسود.

كان «نيبيا» يرهف السمع إلى ذلك الهمس الحزين الطويل. وكان يضحك متعجبًا من تلك الكراهية التي ليس لها أي دافع حقيقي، وتتخذ ذريعةً طريقة تناول الطعام أو الحك تحت الإبط أو الاستيقاظ والقفز بالملابس الداخلية.

كان يعرف «البوريللو» شكلًا، ثم عرفه من قُرب، وبدا له شخصًا مسالمًا جدًّا. وكان «نيبيا» بطبيعته اجتماعيًّا وبريئًا، هادئًا وشاردًا، ويتفق مع الجميع.

وطد «فينتشينزينو» روابط الصداقة مع «نيبيا»، وكان صديقه الأول والأخير والوحيد.

اصطحبه «نيبيا» إلى منزله في «بورجو مارتينو»، وعرَّفه إلى والدَيه، الأب الطبيب، والأم مدرِّسة الابتدائي، وإخوته وأخواته.

وفعل «فينتشينزينو» المثل، واصطحبه إلى «الكازيتًا». نال

«نيبيا» قَبول «بالوتا المُسن»، الذي وعده بمنصب لديه في مصنعه بمجرَّد انتهائه من دراسة الهندسة.

كانوا يذهبون إلى الجبل يوم الأحد، جميعهم معًا: «نيبيا»، و«فينتشينزينو» وأخوات «نيبيا» و«جيمينا» و«البوريللو». كان «فينتشينزينو» يسير ببطء وغالبًا يظل في الخلف، وكان الآخرون يفقدون صبرهم إذ عليهم انتظاره. وهكذا كان هو يتوقف، كالعادة، في كوخ جبلي، بجوار النار المتقدة، ويعزف على الناي، وهو ينظر إلى ألسنة اللهب.

تعرف في إجازة صيف في «سان ريمو» إلى فتاة برازيلية كانت تدرس الموسيقى. كان هو هناك على البحر حسب نصيحة الطبيب، لأنه كان قد أصيب بالتهاب اللوزتين، ولكنه لم يكن يستحم في البحر ولا يتعرض للشمس على الشاطئ، لأن بشرته كانت بيضاء جدًّا، وإذا تَعرَّض للشمس كثيرًا تصيبه الحمى، ومن جهة أخرى كان يكره الشمس، والرمل، وشماسي البحر والزحام. وهكذا كان يقضي وقته وهو جالس تحت الأشجار يقرأ، في حديقة الفندق، وبدأ يتحدث مع الفتاة البرازيلية، التي لم تكن بدورها تحب السباحة في البحر، وكانت تجلس هناك بنظارة الشمس والقبعة الكبيرة، وكانت معها أمها،

«ماميتا»، عجوز قصيرة كالقردة، صبغت شعرها باللون الأحمر.

عاد «فينتشينزينو» إلى «الكازيتَّا» بعد زيارة البحر، وقد استعاد صحته تمامًا. وضع على مائدة الطعام صورة فوتوغرافية، فيها تقف فتاة، في لقطة جانبية، ترتدي رداء سهرة، وعقدًا من اللؤلؤ، عنقها طويل، وشعرها الأسود مرتفع في تسريحة كعكة، وتضع شالًا من الريش.

قال:

ـ خطيبتي.

قال «بالوتا» لزوجته:

ـ هل خطب هذا المهرج؟

ذهب لينظر إلى صورتها، عندما كان «فينتشينزينو» خارج المنزل. قال:

ـ يا له من عنق طويل!

وفي الصباح، بمجرَّد أن استيقظ، قال لزوجته:

ـ إن تلك ستخونه ليلًا ونهارًا ونهارًا وليلًا.

كان «فينتشينزينو» يكتب خطابات طويلة ويرسلها إلى «ساو باولو» في البرازيل، وكانت تصل إليه خطابات طويلة

أيضًا، مكتوبة بحروف متلاصقة وبخط كبير منقوط، صعبة القراءة لأنها كُتبت أيضًا على ظهر الورقة.

وقبل عيد الميلاد أتت الفتاة إلى المدينة مع «ماميتا» و«بابيتو» و«فيفيتو»، أخيها البالغ من العمر اثني عشر عامًا. كانوا يرغبون في الذهاب إلى «الكازيتًا» للتعرف إلى عائلة «فينتشينزينو».

نزلوا في فندق، وكان «فينتشينزينو» يأخذهم ليشاهدوا المدينة.

في إحدى الأمسيات، عند عودة «البوريللو» إلى المنزل، وجد «فينتشينزينو» في فراشه، شاحبًا شحوب الموت، وكان يتقيأ في دلو. كان يرتعد كله، وكان مصابًا بانهيار عصبي.

كان قد أدرك أنه اختنق من «ماميتا» و«بابيتو» و«فيفيتو»، ومن الفتاة نفسها، ولا يعرف كيف يتخلص منهم.

ذهب «البوريللو» لاستدعاء طبيب، و«نيبيا». ومكثا طوال الليل هو و«نيبيا» ليساعدا «فينتشينزينو»، ويُعدا له القهوة القوية، ويمسحا عرقه.

في الصباح ذهبا إلى «بابيتو» و«ماميتا» وقالا لهما إن «فينتشينزينو» مريض، مريض جدًّا بالانهيار العصبي، ولا يستطيع التفكير حاليًّا في الزواج.

أخذت «ماميتا» في البكاء، ثم طلبا نقودًا، فقد أنفقا على الرحلة واشتريا لابنتهما شوارًا مكلفًا.

نالا كل ما طلباه ثم رحلا من جديد إلى البرازيل.

قال «نيبيا» لـ«فينتشينزينو»:

ـ «البوريللو» تصرَّف في هذا تصرفًا جيدًا.

ولكن «فينتشينزينو» لم يشعر بأي امتنان تجاه «البوريللو»، بل أصبح يكرهه أكثر لأنه رآه في هذه الحالة.

عندما نقل «البوريللو» ما حدث لـ«بالوتا المُسن» كان دمثًا وحزينًا، ولكن كان ينبعث من صوته نسمة من سعادة لا يمكنه احتواؤها. فهو، «البوريللو»، كان يتودد إلى الفتيات المستحقات، ويذهب إلى الفراش مع العاهرات والخادمات. لم يحدث له قَطُّ أن مرَّ بموقف تعس، ولم يحدث قَطُّ أن اضطر «بالوتا المُسن» إلى أن ينفق كل هذه المبالغ بسبب قصصه الغرامية.

أُرسل «فينتشينزينو» مرة أخرى إلى البحر، لأن حالته ازدادت سوءًا، ولكن في هذه المرة ذهبت معه «جيمينا» لتسهر عليه، حتى لا يرتكب أي حماقات جديدة.

ترك أيضًا كلية الهندسة؛ إذ تأخرت عليه امتحانات كثيرة، وسجل في كلية الاقتصاد والتجارة.

في تلك الفترة كان «نيبيا» قد تخرج بالفعل منذ مدة، ويعمل في المصنع. «البوريللو» و«ماريو» أيضًا كانا قد تخرجا، ويعملان هناك.

ثم جاء دور الخدمة العسكرية لـ«فينتشينزينو». أرسلوه إلى «بيزارو»، وكان دائمًا يُحجَز، لأنه غير قادر على الإطلاق على ضبط مواعيده وعلى الدقة. كان قد ترك لحيته لتنمو، وغطت خدَّيه طبقة من فراء خشن أحمر اللون، كأنها نباتات عشوائية تنمو على شاطئ مهجور.

وأخيرًا، بعد الانتهاء من الخدمة العسكرية، تخرج في الجامعة.

قال «بالوتا المُسن»:

ـ وأخيرًا وصل ذو القدم المعوجَّة.

لكنه كان سعيدًا، وأرسله إلى أمريكا لمدة عام، ليرى العالم ويتعلم الإنجليزية.

عندما عاد «فينتشينزينو» من أمريكا كان مختلفًا تمامًا. من جديد عاد بلا لحية، تَعلَّم أن يغتسل وأن يقف معتدلًا أكثر، وأن يتحدث بوضوح أكثر.

إذا قدَّموا له شخصًا جديدًا كان يفرد كتفيه ويحدِّق إليه بنظرة حادة، ثاقبة، واضحة، كأنها صاعقة باردة.

وكان أحيانًا يضحك ضحكة سريعة، خبيثة، مختلسة، تكشف عن أسنانه الصغيرة البيضاء، وسرعان ما تنطفئ.

كان قد زار بعض المصانع في أمريكا، وكانت لديه أفكار جديدة، وكان يريد أن يهدم المصنع القديم ويعيد بناءه كله من جديد، بألواح من الزجاج، ويبني حَيًّا سكنيًّا للعمال.

كان قد قرأ بعض كتب التحليل النفسي، واكتشف أنه مُصاب بعقدة الأب، وأنه قد تَعرَّض لصدمة طفولة عندما رأى «البوريللو» يقتل كلبًا رميًا بالحجارة.

عاد إلى «الكازيتًا» وبدأ يعمل في المصنع. كان يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، وهو يخطِّط لمشروعات.

كان أبوه يقول:

- في البداية لم يكن يهتم بالمصنع على الإطلاق، الآن يريد التدخل أكثر من المطلوب. الميزة الوحيدة أنه لم يعد يعزف الناي، وتوقف عن النواح.

لكن «فينتشينزينو» استمر في التجول وحيدًا بين الحقول. وكان لا يزال يتوقف لينظر بثبات إلى حائط أو إلى شجرة، وهو يحكُّ جبهته مكرمشًا أنفه.

تزوج فتاة من «بورجو مارتينو». كانت صديقة أخوات «نيبيا»، وكان يعرفها منذ عدة أعوام. تزوجها، بعد كشفه

عن حبه لها بطريقة معقَّدة ومضطربة. تزوجها على عجل لأنه كان يخشى أن يغيِّر رأيه.

* * *

لم يكن بين «ماريو» و«فينتشينزينو» أي تشابه على الإطلاق. كان «ماريو» شابًّا فرحًا، منطلقًا، اجتماعيًّا، وكان كل شيء ينجح معه بسهولة.

كان طويل القامة، هادئًا، أنيقًا، وكان يقسِّم يومه جيدًا بين العمل والترفيه. بعد العمل في المِصنع كان يعود إلى «الكازيتَّا» ليبدل ملابسه، ويذهب بعد ذلك إلى عائلة «سارتوريو» ليلعب التنس، مرتديًا بنطلونًا وسترة زرقاء ذات أزرار ذهبية.

كان «بالوتا المُسن» يقول:

ـ يشبه تمامًا «باربا تومازو». أتمنى أن لا يكون غبيًّا.

كان «ماريو» يقضي أمسياته في لعب البوكر لدى عائلة «سارتوريو» أو «بيريجو» أو «بوتيليا».

كان يستطيع أن يلقي النكات جيدًا، وهو جاد جدًّا، ومن دون أن يرمش له جفن. وكان يعرف نكاتًا كثيرة دائمًا، يحصل عليها من بعض المجلات، الإيطاليةِ أو الأجنبية، التي اشترك فيها، ويحقق نجاحًا كبيرًا.

أحيانًا، في الفترات التي كان يشعر فيها بالإجهاد الشديد، كان يبدأ في التحدث بسرعة، بطريقة عصبية، متمتمًا، كأنه لا يمكنه التوقف، ولا يمكن لأحد إسكاته. عندئذ يصبح وجهه رماديًّا ومجوَّفًا، كأنه حزمة مشدودة من العظام، وفوق عضلة وجنته أسفل عينه اليسرى تنتابه رعشة خفيفة. لم يكن يمكنه النوم، في تلك الفترات، وكان يقضي لياليه وهو يدخن في غرفته، أو يتمشى في شوارع البلدة، بل كان يذهب حتى «لي بيتري»، ويوقظ «باربا تومازو» و«البوريللو» بثرثرته.

كانوا يرسلونه لفترة إلى مدينة ساحلية أو إلى الجبل ليستريح بعض الوقت، وعندما يعود يكون هادئًا من جديد، ويكون الأرق والرغبة في التحدث باستمرار قد فارقاه.

بدا لوهلة أنه على وشك الارتباط بكبرى «صغيرات بوتيليا»، لأنه كان يخرج معها كثيرًا، إلا أنه ذهب ليقضي بعض الشهور في «موناكو»، في رحلة عمل، وهناك تزوج.

غضب «بالوتا المُسن» غضبًا شديدًا، عندما عرف بزواجه. كانت الفتاة رسامة ونحاتة، وكانت روسية، كانت عائلتها قد هربت من موسكو عند قيام الثورة. كانت يتيمة، وتسكن في «موناكو» لدى أعمامها. اعتقد «بالوتا المُسن» أنها لا بد وأن تكون فتاة لَعوبًا، أو جاسوسة.

أرسل «البوريللو» إلى «موناكو» ليرى. أخبره «البوريللو» أنه لا يمكن عمل أي شيء. «ماريو» عاشق ولهان، وسيتزوج، ولم يستمع إلى صوت العقل.

لكنه جمع بعض المعلومات بأن أعمامها يملكون محلًّا صغيرًا للأسطوانات، ولم يكن أحد يعرف عنهم كثيرًا.

عاد «ماريو» إلى «الكازيتًا» مع زوجته. كانت فتاة قصيرة، نحيلة وهزيلة، بوجه تغطيه البودرة، حتى يهيَّأ للمرء أنه مغطى بالتراب. كانت ترتدي قبعة من اللباد الأسود، وقفازين أسودين.

عندما خلعت القفازين ظهرت يدان نحيلتان تغطيهما الندوب. شرح «ماريو» بأنها أحرقت نفسها بالأحماض في أثناء إعدادها ألوانَها، لأنها معتادة أن تُعد الألوان بنفسها.

لم تكُن تتحدث كلمة إيطالية واحدة، كانت تتحدث بعض الفرنسية، مختلطة ببعض الألمانية والروسية، بصوت منخفض ومبحوح بعض الشيء. كان اسمها «زينيا».

كان «بالوتا المُسن» يشعر بالحنق الشديد. كان يعتقد أن «ماريو» سيتزوج واحدة من بنات صديقه القديم، المحامي «بوتيليا»، إلا أنهم الآن وجدوا أنفسهم أمام هذه الغريبة، التي برزت إلى الوجود من حياة غامضة لا أحد يعرف عنها

شيئًا، وتتحدث الفرنسية، لغة لا يتحدثها لا هو ولا زوجته على الإطلاق.

شعر «بالوتا» تجاه «زينيا» بالنفور الشديد الأعمى، غير القابل للسيطرة. شارك «فينتشينزينو» أباه في هذا النفور. للمرة الأولى، منذ أعوام كثيرة، تحالَف «فينتشينزينو» مع أبيه.

كان «فينتشينزينو» أيضًا قد تزوج، وكانت زوجته واضحة وبسيطة ونظيفة، يعرف الجميع كل شيء عنها، وكان بلدها «بورجو مارتينو».

أخذ «ماريو» ومعه «زينيا» يدوران في البلدة، بحثًا عن منزل يشتريانه. زارا بيوتًا كثيرة. كانت «زينيا» تنظر، بعينيها الباهتتين الكبيرتين المكحلتين، ذواتَي الرموش الثقيلة، ثم تتمتم بشيء بالفرنسية، وكان يُفهم أن تلك المنازل لا تعجبها.

في النهاية ابتاعا «فيلَّا رونديني»، قصرًا كبيرًا أحمر اللون تحيط به الغابات أعلى الهضبة.

كان أبناء «بالوتا» يعرفون، منذ مدة طويلة، أنهم أغنياء، وكانوا يرون أن ثراءهم يزداد بمرور السنين، إلا أن عاداتهم لم تتغير قَطُّ. كانوا يرتدون ملابسهم

بالطريقة نفسها، ويأكلون الأشياء نفسها. كانت السيدة «تشيتشيليا» تعدل بنفسها معطف الشتاء الماضي لتعيد استخدامه، في المنزل، بمساعدة خادمتها «بينوتشا». وإذا رغبت في فستان جديد كانت تستدعي حائكة البلدة «سيستيليا».

في «الكازيتَّا» كانت مائدة الطعام عامرة دائمًا بطعام شهي، مغذٍّ وطازج، وكان هناك دائمًا وفرة من كل شيء. ولكن مفرش المائدة كان متهالكًا من كثرة غسله، والأكواب المتاحة للاستخدام اليومي كانت أوعية مربَّى «شيريو»، وكان طبق الجبن بغطاء مكسور أعيد إلصاقه، وكانت السيدة «تشيتشيليا» تقول دائمًا:

ـ لا بد لي من شراء طبق جبن جديد.

كان لديهم في «الكازيتَّا» سيارتان، واحدة قديمة ضخمة وقاتمة اللون، وواحدة صغيرة، مكشوفة، كان «البوريللو» أكثر مَن يستخدمها في المنزل، ليذهب بها إلى المدينة. كان لديهم كثير من المعاطف الواقية من الأمطار، وكثير من الصناديق وحقائب السفر، وعديد من الأوشحة الصوفية الإسكتلندية، وعديد من أزواج المزلاجات. لم يترددوا قَطُّ في الإنفاق على السفر والإجازات، وعلى الرحلات العلاجية والأطباء. ولكن عندما وصلت «زينيا» أدركوا

كيف لم يكن أحد منهم يعرف العيش ببذخ، أما «زينيا» فقد كانت تعرف.

اكتشفوا أن ملابسها، التي كانت تظهر بطريقة ما مكرمشة ومتربة، كانت في واقع الأمر باهظة الثمن، وأنها واردة من بيت أزياء مشهور في باريس. وكانت قد طلبت تلك الفساتين والفراءات والأحذية عندما ذهبا إلى باريس بعد الزواج.

أعدت المكان بنفسها في «فيلَّا رونديني»، وذلك بأن فرشت الحجرات بقِطع أثاث ثقيل وكئيب من الطراز الفخم، ووضعت ستائر داكنة على النوافذ، لأنها كانت تحب الضوء الخافت.

عيَّنت عددًا من الخادمين والخادمات، ومساعدين لهم، ولم يكن أحد يفهم كيف تتمكن من التحكُّم فيهم جميعًا، فلم تكن تتحدث سوى الفرنسية، وبذلك الصوت المنخفض.

كانت ترسل لشراء اللحم من «تشينيانو»؛ إذ كان أفضل هناك، ولكن كان ثمنه أغلى. وكانت ترسل أيضًا لتبتاع الفاكهة من «كاستيللو» في الصباح الباكر مع السائق، وكانت ترسل لشراء الفراولة من «كاستيل بيكولو»، وجبنة «الريكوتا» من «سوبرانو»، والمقرمشات من «توري».

لكنها كانت تأكل قليلًا جدًّا: ورقة خَسٍّ، ملعقة شوربة... وكانت ترسل لتبتاع الأناناس من المدينة، وكانت تتذوقه بالكاد، تأخذ منه قطعة صغيرة على طرف الشوكة.

كانت نحيفة جدًّا، إلا أنها كانت تعتقد أنها سمينة. وضعت في أحد الحمامات سخَّانًا خاصًّا من أجل حمامات البخار، وكانت تخرج من تلك الحمامات أكثر نحافة وهزالًا مما كانت.

كان مرسمها في حجرة كبيرة في الدور الأرضي. هناك تجلس ببنطلون من القطيفة السوداء لترسم، أو لتنحت، أو لتعجن بعض الصلصال، الذي كانت تطهيه بعد ذلك في فرن ضخم استوردته خصيصًا من هولندا.

لم تكن تنزل قَطُّ إلى البلدة. كانت تتجول في الحديقة بخطوات واسعة مع كلبيها الصغيرين. كان لديها كلبان مجعَّدَا الشعر، لونهما رمادي يميل إلى الوردي.

لم تضع قدمها قَطُّ في «الكازيتَّا»، ولكن في أعياد الميلاد والفِصْح كانت ترسل إلى الجميع هدايا باهظة الثمن.

في المساء، كانا يجلسان وحدهما، هي و«ماريو»، في الصالون الكبير المكدَّس باللوحات الداكنة وقِطع الخزف الثمين والمرايا. كانت في الشمعدانات الفضية بعض

الشموع المضيئة، ولم يكن للإضاءة مصدر آخر. كان كل منهما يمسك يد الآخر، وكانا يلعبان مع كلبيهما الصغيرين. هكذا كان يجدهما أحيانًا «البوريللو»، الشخص الوحيد الذي كان يذهب إلى «فيلَّا رونديني» في بعض الأمسيات.

كانت السيدة «تشيتشيليا» تقول:

ـ فقط بعض الشموع، على الأقل يوفران في الإضاءة بالكهرباء.

ولكن لم يكن هذا حقيقيًّا؛ إذ كانا يدفعان مبالغ خرافية أيضًا للإضاءة بالكهرباء، ربما لأن الفرن الذي أحضرته من هولندا كان يعمل بالكهرباء.

ابتاعا سيارة كبيرة سوداء لامعة، كانت تبدو كأنها عربة جنائزية. كانت تنزل إلى المدينة مرتين في الأسبوع، يصحبها السائق. كانت تدفن نفسها في المقعد الخلفي للسيارة بنظارتها السوداء، وكان وجهها الشاحب يغوص في ياقة فرائها. كانت تذهب إلى هناك من أجل الحمام التركي، لأن حماماتها البخارية لم تعد تكفيها.

نقلت إلى «البوريللو» عدوى الرغبة في الإنفاق. ابتاع لنفسه سيارة «إيزوتا فراسكيني». وابتاع أيضًا فِراشًا بمسند للظهر مثل ذلك الموجود في العيادات، ليكون مريحًا

أكثر في أثناء القراءة ليلًا قبل النوم. وصنع بجوار غرفته حمامًا فاخرًا ببانيو موضوع داخل الأرض، حُفر في غرفة للخزين كانت «مانيا ماريا» تستخدمها في تعليق لحم الخنزير المُجفَّف.

عندما حان الوقت لتلد «زينيا» طفلها الأول، أرسل «ماريو» ليستدعي طبيبًا من سويسرا، وأصبح لديهما في العام التالي طفل آخر. وكانت لديهما ممرضة سويسرية ترتدي غطاء رأس أزرق. كانت لديهما أيضًا مربية من «فينيسيا». مرضت «زينيا» بعد ذلك، وأزالت الرحم، ثم تماثلت للشفاء وعادت مرة أخرى للنحت والرسم والتجول مع كلبيها.

سرعان ما تحول شعرها إلى الرمادي، ولم تكُن تصبغه، مَن يدري لماذا؟

كان «بالوتا المُسن»، في المرات النادرة التي يراها فيها، بمناسبة أعياد ميلاد الأطفال، يقول لزوجته:

- هل رأيتِ كيف شاخت «زينيا»؟ هل رأيتِ كم هي قبيحة؟ كيف تُرى يتحمل «ماريو» الذهاب معها إلى الفراش؟

كان «فينتشينزينو» يشرح كل شيء بالتحليل النفسي. كان يقول إن «ماريو» مصاب بعقدة الأم، وإنه يشعر بأن «زينيا» تحميه؛ إذ كان لها طابع سلطوي، وكانت تحكمه وتأمره.

من حين إلى آخر كان هاجس كونها جاسوسة يعود إلى «بالوتا المُسن»، وأحيانًا إلى «فينتشينزينو». لم يكن أحد يعرف أي شيء عنها، أو عن ذلك الذي فعلته قبل أن تصل إلى البلدة. المرات النادرة التي كانوا يقابلونها فيها كانت تتحدث قليلًا جدًّا، وبالفرنسية دائمًا، لأنها لم تكلف نفسها عناء تعلم الإيطالية.

لكن «نيبيا» كان يقول:

ـ لا، ليست جاسوسة، إنها فقط غبية، وحتى لا تُظهر غباءها نسجت حول نفسها كل هذا الغموض، مثل بعض اليرقات التي تغطِّي نفسها باللعاب حتى لا يستطيع أحد الإمساك بها.

في ذلك الوقت كان «ماريو» قد سمن قليلًا، كان يذهب لينام مبكِّرًا، ولم تعاوده اضطرابات الأرق ولا الثرثرة المستمرة.

* *

ذهب «فينتشينزينو» وزوجته ليعيشا في «كازا ميركانتي». سكنا منزلًا صغيرًا على حدود البلدة، كان يمتد أمامه مرعًى واسع، به شجرتا كمثرى أو ثلاث، وخلفه كان بستان محاط بسور مزروع بالكرنب.

كانت زوجة «فينتشينزينو» تُدعى «كاتي». كانت طويلة القامة، وجميلة، وعفية. كان شعرها الأشقر كثيفًا وكانت تصففه أحيانًا في ضفيرتين مثبتتَين بقوة فوق أذنيها، وأحيانًا تلفه، طريًّا وثقيلًا، وتثبته على قمة رأسها.

كان وجهها ممتلئًا، قمحيًّا من الشمس، به بعض النمش الخفيف. عظام خديها عالية وبارزة، عيناها خضراوان مائلتان قليلًا إلى أعلى تجاه الحاجبين.

بقوا يتذكرونها في البلدة لمدة طويلة، عندما كانت تعود من جدول المياه حيث ذهبت لتسبح، وكانت الرياح تضرب تنورتها القصيرة على رجليها العاريتين الممتلئتين، اللتين لونتهما الشمس باللون الذهبي، وكان شعرها المبتل يتدلى على جبهتها، وعلى كتفها المنشفة الرطبة والمتسخة بالرمال.

يتذكرونها أيضًا عندما كانت تنزل من فوق الهضبة وشفتها متسخة بعصير التوت، امرأة طويلة، جميلة، شقراء، ومعها أولادها الشقر.

عندما كانت تذهب إلى مجرى المياه في الصيف، كانت ترتدي ثوبًا أزرق اللون بشريط أبيض على طرفه. تضع منديلًا منقَّطًا بالأبيض والأزرق، تلم فيه شعرها. في الشتاء، عندما كانت تذهب للتزحلق على الجليد، كانت

ترتدي بلوفر صوف أبيض اللون بياقة مطوية. كانت تضع على كتفيها في ليالي الخريف الباردة، عندما تجلس في الحديقة، شالًا أسود كالنساء الفقيرات.

تزوجت «فينتشينزينو» بلا حب، ولكنها فكرت في أنه شخص طيب جدًّا، حزين بعض الشيء، وأنه لا بد وأن يكون ذكيًّا.

فكرت أيضًا في أن لديه كثيرًا من الأموال، وأنها لا تملك شيئًا.

ولكن في الفترة الأولى، عندما انتقلت إلى «كازا ميركانتي»، شعرت بالحزن الشديد. كانت تمكث فترات طويلة من الظهيرة وهي تنظر إلى بستان الكرنب خلف المنزل. كان يبدو لها أن العالم كله يملؤه الكرنب، وكانت تبكي لأنها ترغب في العودة لأمها.

لم تكن «بورجو مارتينو» بعيدة، ولكنها لم تكن تجرؤ على الذهاب؛ خضوعًا لزوجها.

في بلدها في «بورجو مارتينو»، كانت أمها الأرملة تمتلك محلًّا صغيرًا للأدوات المكتبية. كان لها أيضًا ثلاث أخوات أصغر منها، لا يزلن يذهبن إلى المدرسة، وفي المنزل كان الجو مليئًا بالسعادة والصخب الشديد.

أما هنا، في «كازا ميركانتي»، فيسود الصمت دائمًا. تذهب أحيانًا إلى المطبخ لتمضي الوقت في التحدث مع «بينوتشا» الخادمة، التي تنازلت عنها حماتها «تشيتشيليا» وأرسلتها إليها. كانت تحكي لـ«بينوتشا» عن منزلها، وعن الضحكات الصاخبة التي كانت تنطلق منها ومن شقيقاتها. كانت «بينوتشا» تستمع إليها وهي تقشر البطاطس، وتدعك أنفها من حين إلى آخر بيدها الخشنة.

في وقت متأخر من المساء كان «فينتشينزينو» يعود إلى المنزل، وتكون هي عادةً قد نامت على المقعد في انتظاره.

«فينتشينزينو» أيضًا تزوجها بلا حب. كان قد فكر في أنها فتاة عفية، بسيطة وطيبة.

كان قد فكر أيضًا بطريقته الملتوية بعض الشيء، في أن هذه الزيجة ستحظى برضى والده، لأنها ستمكنه بطريقة أو بأخرى من أن يقارنها بالطريقة التي تزوج بها «بالوتا» نفسه، الذي كان قد اختار «تشيتشيليا» من قرية قريبة، واختارها لأنها كانت شقراء، وفقيرة، وعفية.

ولكن أدرك «فينتشينزينو» عندما تزوجها، أنه لم يكن لديه أي شيء يقوله لها. كانا يقضيان أمسياتهما في صمت، يجلس كل منهما مقابل الآخَر، في مقعده في الصالون.

كان يقرأ كتابًا وهو يضع إصبعه في أنفه، ومن حين إلى آخر ينظر إليها وهي تشتغل الصوف، برأسها الأشقر المنحني، على الضوء الوردي المنعكس من غطاء المصباح. كان يرى أنها جميلة جدًّا، ولكن يفكِّر في أنها ليست مناسبة له، لأنه يفضل القمحيات، والشقراوات لم يعنين له شيئًا قَطُّ.

كانت هي تبكي كثيرًا في الظهيرة، وهي في حجرتها المغلقة، بجوار النافذة التي ترى منها حقل الكرنب. وكان هو عندما يعود إلى المنزل يجد وجهها منتفخًا وعينيها حمراوين. عندئذ كان يحثها برقة على أن تذهب لتزور أمها في «برجو مارتينو» في اليوم التالي.

تدريجيًّا، اعتادت أن تذهب كثيرًا إلى هناك بالدراجة. كانت تذهب تقريبًا كل يوم، كانت تذهب أحيانًا أيضًا يوم الأحد ظهرًا؛ إذ كان «فينتشينزينو» يقضي ظهيرة الأحد كلها في النوم أو في القراءة أو في دراسة مشروعات جديدة للمصنع، ولم يكن يرغب في الخروج.

كان «فينتشينزينو»، وهو وحده في المنزل، يتجول في الحجرات بملابس النوم. كانت الحجرات كلها باردة، شبه مظلمة، ويسودها صمت مريح. وتكون «بينوتشا» أيضًا قد خرجت. عندئذ كان يصب لنفسه كأسًا كبيرة من الويسكي بالثلج والمياه المعدنية. كان قد تعلم في أمريكا

شرب الويسكي. كان يجلس على مقعده في الصالون، ومعه كتابه، وبجواره الكأس.

كان يحب أن يجلس هكذا وحيدًا؛ كان يشعر براحة عميقة وسكينة.

ثم أنجبا الأولاد. في البداية ولدًا، وبعد ذلك بنتًا، ثم ولدًا آخر. وفي الحديقة الأمامية كانت لفافات الأطفال معلقة على حبل مربوط بين شجرتَي كمثرى، وعلى العشب كانت توجد اللعب والدلاء الصغيرة. أصبح لدى «كاتي» كثير لتفعله، وكفت عن البكاء، ولم تعد تذهب كثيرًا إلى «بورجو مارتينو».

ولكن لم يكن يعجبها أي شخص في البلدة. كانت تجد السيدة «تشيتشيليا» شخصية مملة، «عجوزًا برجانا»، وهي كلمة كانوا يستخدمونها في منزلها في «بورجو مارتينو»، وتعني شيئًا مثل «عجوز ثرثارة». كانت علاقتها بـ«جيمينا» باردة، كانت دائمًا كذلك منذ أن تزوجت «فينتشينزينو»، ربما لأن «جيمينا» كانت تغار منها، لأنها جميلة، أو ربما لأنها كانت تعتقد أنها تزوجت «فينتشينزينو» من أجل أمواله، بلا حب.

كان «البوريللو» ثقيل الظل بالنسبة إليها. «زينيا» كانت تبدو لها مجنونة. كان «نيبيا» يعجبها كثيرًا، أيضًا لأنه كان من

«بورجو مارتينو»، ولكن «بوباتزينا» زوجة «نيبيا» لم تكن تعجبها على الإطلاق، كانت تراها مهملة، ولا تعتني بأطفالها، الذين كانوا دائمًا متسخين بعض الشيء، ولا يخرجون قَطُّ.

مع «رافايلَّا»، أخت «فينتشينزينو» الصغرى، كانت تذهب أحيانًا لتعوم في مجرى المياه، ولكنها شعرت بالضيق أيضًا من «رافايلَّا» بعد قليل. في سن الثامنة عشرة كانت «رافايلَّا» تبدو مثل الصبي السوقي. كانت تنطلق في اللعب مع الأطفال، وتدفعهم للعب شديد الصخب والخطورة، تجعلهم يغطسون في مناطق الدوامات من المجرى، ويصعدون على أكثر الصخور ارتفاعًا.

حاولت «كاتي» أن تبدأ في إنفاق النقود، لأنه كان يوجد منها كثير. طلبت بعض الأثواب من المدينة، وطلبت أيضًا فراء فئران المسك الأسود، ولكن لم تكن ترتديه كثيرًا؛ إذ كان يبدو لها كأنه يضفِي عليها بعض التعالي، كما كانوا يقولون في منزلهم في «بورجو مارتينو»، كأنها «عجوز مرزوبيا»، وهي كلمة تعني «هانم» في لهجتهن الخاصَّة هي وأخواتها.

لتقلد «زينيا»، ابتاعت بناطيل من القطيفة الضيقة، ولكن قال لها «نيبيا» إنها لا تناسبها إذ تزيد حجم جانبيها. شعرت

بالإهانة، وقالت لـ«فينتشينزينو» إن «نيبيا» يجب أن يلتزم الصمت، ومعه أيضًا زوجته تلك، التي تبدو كأنها ترتدي ملابس غريبة ممزقة.

كانت تبتاع المقرمشات من «توري»، وترسل «بينوتشا» لتبتاع لها الفراولة من «كاستيل بيكولو». كانت «بينوتشا» تعود، وهي تشعر بالحر وتتصبب عرقًا بسبب صعود الهضبة في الشمس، بلا فراولة، لأنهم ابتاعوها كلها مبكرًا في الصباح من «فيلَّا رونديني».

كانت تذهب أحيانًا إلى «الكازيتَّا»، لتزور السيدة «تشيتشيليا». كانت السيدة «تشيتشيليا» تُريها شجيرات الكوبية والقرنفل والورود التي تعتني بها، وأيضًا حوضًا من زهور القرنفل التي أحضر لها بذورها «البوريللو» من هولندا.

كانت تذهب أحيانًا إلى «لي بيتري». كان «باربا تومازو» يذهب لاستقبالها عند البوابة، يقبِّل يدها ماسحًا إياها قليلًا بوجنته المُسنة المحلوقة جيدًا وردية اللون، لأنه كان يحب أن يقال عنه إنه زير نساء، وحتى في سِنِّ السبعين يغازل الجميلات منهن.

كانت «مانيا ماريا» هناك بشعرها الرمادي المصفَّف إلى الخلف، وأنفها الأحمر الطويل، وعلى إحدى فتحتيه

بثرة بحجم البازلاء. تقدم لها طبقًا صغيرًا من المشمش وكأسًا من النبيذ الحلو، وتحتضنها، ثم تعود لتحتضنها مرة أخرى، وتردِّد:

ـ كيف حالك؟ هل أنتِ بخير؟ رائع، رائع! وكيف حال الأولاد؟ رائع، رائع! ووالدتك؟ رائع، رائع، كم أنتِ رائعة!

لم تكن «مانيا ماريا» هي أيضًا مسلِّية على الإطلاق.

اعتادت أن تذهب كل يوم أحد إلى الجبل، للتسلق في الصيف، وللتزحلق على الجليد في الشتاء، مع «نيبيا»، و«البوريللو»، و«رافايلَّا».

كان «نيبيا» يقول لها إنها لا تجيد التزحلق، إذ ليس لديها أسلوب محدَّد، فقط كانت تلقي بنفسها إلى أسفل كالجِوال. كانت هي و«نيبيا» يتشاجران دائمًا بعض الشيء؛ إذ كان كلاهما يعرف الآخر منذ الطفولة.

كانت «رافايلَّا» تتصرف كالصبي المشاكس، تهبط المنحدرات وهي تصرخ كالمتوحشين، وتضرب الجميع على ظهورهم بيدها الثقيلة كالرصاص. في الجبل، في الهواء الطلق، كانت تنطلق أكثر من أي وقت آخر. كانت تستمتع، بشكل خاص، بأن تلهو مع «البوريللو»، فعندما يطلب الجبن تعطيه صابونًا، وبدلًا من الصابون تعطيه الجبن. أو تضع له

في ياقته قشور الكستناء، التي تحضرها خصيصًا من حديقتها. وكان «البوريللو» ينظف بصبر كنزته الصوفية من ذلك القشر. كان مزاحًا بريئًا، أبله قليلًا، كمزاح طلبة المدارس.

كان جميعهم يسخرون من «البوريللو» لأنه كان فاشيًّا جدًّا، ويقلِّدونه عندما استقبل ضباط الحزب في المصنع، ويقلِّدونه وهو يؤدِّي التحية الرومانية لهم.

كان «البوريللو» يبتسم مقوِّسًا فمه الصغير، وهو يبعد يد «رافايلَّا»، التي كانت تضربه بلكمة في معدته بيدها الثقيلة كالرصاص.

في المساء، كانوا يستريحون في الكوخ، يشربون النبيذ الساخن ويغنون:

ليندا آه يا ليندا، يا حب حياتي،

أنتِ مستـــريـحـــة فـــي الداخـــــل،

وأنـا فـــي الخـــارج ألتحــف السمـــــاء،

كانت هذه أغنية «نيبيا».

ولكن كان «نيبيا» يرغب دائمًا في العودة مبكِّرًا إلى المنزل، وإلا فسيجد «بوباتزينا» غاضبة. عندئذ كانت «كاتي» تسخر منه، لأنه يخاف من «بوباتزينا».

كانوا يتركون السيارة في «الألبيتا»، قرية صغيرة على الطريق. يأخذون دائمًا سيارة «نيبيا» لأن «البوريللو» كان يحب أن يحفظ سيارته «الإيزوتا فراسكيني» أسفل الأغطية.

كانت «كاتي» تجد «فينتشينزينو» لا يزال مستيقظًا يقرأ، ومعه كوب الويسكي. تتذوق منه رشفة صغيرة، وترتعش قليلًا، لأنها لم تكُن معتادةً هذا المذاق القوي. يقول هو:

ـ كيف الحال يا عزيزتي؟

ويعاود القراءة.

كانت هي تذهب لتخلع ملابسها، وتختار رداء للنوم من الأدراج. كان لديها كثير من أثواب النوم، كانت تحبها رقيقة، من الحرير المطرز أو الشيفون.

كان«فينتشينزينو» يقول لها، وهو على وشك أن ينزع ملابسه هو الآخر:

ـ يا له من رداء جميل!

تقول هي:

ـ عندما كنت صبية كانت أمي تُحضِر لنا أردية للنوم من قماش الفانيلا المزيَّن بالزهور، بأكمامٍ طويلة لم أكن أتحملها.

ثم تقول قبل أن تخلد للنوم:

ـ في حقيقة الأمر، ليس «البوريللو» بهذا السوء.

لأنها كانت سعيدة، وتشعر بأن التسامح يملؤها، وأنها صديقة للجميع.

ثم بدأت تذهب إلى الحفلات، والحفلات الراقصة. أحيانًا كان «فينتشينزينو» يصحبها، وإذا لم يفعل، كانت تذهب مع «البوريللو».

في البلدة أخذوا يقولون عنها إنها عشيقة «البوريللو». عرفت ذلك لأن خادمتها «بينوتشا» قد نقلته لها. حكت ذلك لـ«فينتشينزينو» ضاحكة:

ـ أنا و«البوريللو»!

ولكن الآن صار «بالوتا المُسن»، عندما تذهب إلى «الكازيتَّا»، ينظر إليها عابسًا، ولا بد أن يجد خطأً ما في أي شيء تقوله.

كانت أخواتها، اللاتي أصبحن شابات، يأتين أحيانًا لزيارتها من «بورجو مارتينو». يقضين أيضًا ليلتهن هناك، ويتسببن في ضوضاء مع الأطفال، بعد العشاء. وإذا كانت لديها دعوة لسهرة ما، ترتدي ملابسها بسرعة.

يقول لها «فينتشينزينو»:

ـ لماذا لا تأخذين أخواتك معك؟

تقول، وهي تضع قرطيها:

ـ لا، فهن لا يزلن صغيرات، ولم يدعُهن أحد.

في الحقيقة لم تكن ترغب في أن تأخذهن معها، خشية أن يراهن الجميع سوقيات بعض الشيء.

تقول:

ـ بالإضافة إلى أنهن ليس لديهن أثواب مناسبة.

يقول «فينتشينزينو»:

ـ اشتري أنتِ لهن بعض الأثواب غدًا.

أحيانًا كان «نيبيا» يذهب ليقضي معهم الأمسية. يترك «بوباتزينا» في المنزل، لأن «كاتي» و«بوباتزينا» لم تطق كلتاهما الأخرى. كان «نيبيا» يناقش مع «فينتشينزينو» أمور المصنع، وكانا دائمًا متفقَين معًا، ضد «بالوتا المُسن»؛ إذ كانت أفكاره كلها قديمة.

كانت هي تشعر بالملل، وتنتظر حتى يتحول النقاش إلى شيء أفضل.

تقول:

ـ كم أنتما مُمِلَّان!

يقول لها «نيبيا»:

ـ اسكتي قليلًا.

كانا يتخاطبان بلا شكليات؛ إذ كانا صديقين من الطفولة.

قالت في إحدى الأمسيات لـ«نيبيا»:

ـ إن الحياة شيء جميل بالفعل.

كانت قد استمتعت كثيرًا في الظهيرة، في حفل شاي في «فيلَّا رونديني». هناك تعرفت إلى عازف كمان صديق «زينيا»، وضيف في تلك الأيام في «فيلَّا رونديني»: شخص قصير القامة، يطلق عليه الجميع لقب «مايسترو»، في ما عدا «زينيا» التي كانت تحدثه بلا ألقاب.

قال «نيبيا»:

ـ الحياة جميلة بالنسبة إليَّ، وبالنسبة إلى «فينتشينزينو»، فلدينا ما نفعله. لكنها بالنسبة إليكِ ملل شديد، لأنكِ لا تفعلين شيئًا طوال اليوم.

قالت هي:

ـ أنا لا أفعل شيئًا؟

قال «نيبيا»:

ـ نعم، ماذا تفعلين؟

قالت هي:

ـ وزوجتك؟ ماذا تفعل زوجتك؟

قال «نيبيا»:

ـ زوجتي؟ زوجتي أيضًا لا تفعل شيئًا، فلديكما الخادمات اللاتي يهتممن بالأولاد وبالبيت. إنكما برجوازيتان، وتشعران بالملل، مثل كل السيدات ميسورات الحال.

ـ أنا لست سيدة ميسورة الحال! أنا لست برجوازية! لا أعرف لماذا، ولكنني لست برجوازية، ولا حتى في الأحلام!

أخذ «فينتشينزينو» يضحك.

قالت هي:

ـ ثم إنه، حتى إن كنت برجوازية، لا يهمني شيء، ولا أشعر بالملل، لأنني أجد ما يسلِّيني. وبالنسبة إلى أطفالي، على الرغم من وجود المربية، فأنا أعتني بهم، آخذهم خارج المنزل بعض الوقت. بينما «بوباتزينا» لا تصحب أولادها خارج المنزل أبدًا، خوفًا من أن يصابوا بنوبات برد. وأولادها شاحبون، ولا يصاب أبنائي أبدًا بألم في حلقهم.

تكلمت بسرعة شديدة، حتى إنها قطعت أنفاسها، ولكن لم يرغب «نيبيا» في أن تُمَس «بوباتزينا» بسوء. قال:

ـ اتركي «بوباتزينا» لحالها، ماذا فعلَت لك؟

قالت وهي ترفع كتفيها:

ـ لم تفعل لي شيئًا.

ثم قالت:

ـ اليوم ذهبت إلى «فيلَّا روندينى». وضعوا الآن في المدخل تمثالين لملاكَين كبيرين من الخشب المُذهَّب، عثروا عليهما في محل أنتيكات في المدينة، إلا أنهما ليسا بهذا الجمال.

قالت:

ـ نحن أيضًا لا بد أن نغيِّر المنزل لأنه أصبح ضيقًا علينا. لا يوجد لدينا حجرة للغسيل، ونستخدم المطبخ لكَيِّ الملابس. في «فيلَّا روندينى» لديهم غرفة كبيرة للكَي، كلها خِزانات مثبَّتة في الحائط، والملاءات مرتبة بداخلها. والآن أعادوا تنظيم المطبخ من جديد، وأصبحت الأرضية من الرخام، رائعة الجمال.

قال «فينتشينزينو»:

ـ لا أفكر في تغيير المنزل، فأنا في أحسن حال هنا.

كانوا يتناقشون حول المنزل تقريبًا كل مساء.

قالت:

ـ إن «زينيا» ليست ثقيلة جدًّا، فهي دائمًا لطيفة جدًّا معي.

في ذلك الوقت، ولأن «نيبيا» لا يهتم بتلك الموضوعات، فقد راح في النوم ورأسه على ظهر مقعده، وكان يبتسم قليلًا في أثناء نومه.

قالت «كاتي»:

ـ لماذا يأتي إلى هنا إذا كان سينام؟ لقد أصبح «نيبيا» هذا مملًّا جدًّا، أبله بالفعل.

بعد أن رحل «نيبيا» ذهبت إلى فراشها، وفي ذلك الوقت كان «فينتشينزينو» لا يزال يتجول في حجرات المنزل، وأخذ كتابًا وانكب عليه.

كانت هي تفكر في عازف الكمان، ذلك الذي قابلته عند «زينيا»، وكان جالسًا طوال الوقت بجوارها على المقعد، وقال لها إن رأسها مثير للاهتمام، ويشبه لوحة الربيع لـ«بوتيشيللي».

كان اسمه «جورجو تيبالدي». كان قِصير القامة جدًّا، ذا شعر رمادي، وكان عندما يتحدث يغنِّي بصوته قليلًا.

كان قصيرًا إلى حد أنه لم يكن يصل حتى إلى كتفها، وكان بالفعل شعره كله رماديًّا، لم يكن شابًّا بالتأكيد.

لم يعجبها، إلا أنه كان يمكنها أن تمكث هناك في صالون «فيلَّا رونديني» إلى الأبد، لتستمع إلى صوته العذب جدًّا، المُنغَّم، والذي كان يهدئها.

ذلك الصوت كان كالمواء بداخلها، إذا فكرت فيه من جديد: كمواء يضايقها، ولكن في الوقت نفسه يثيرها.

أخذت تفكر: «كم هي حلوة! كم هي حلوة الحياة! وكم هي خطيرة! فهي خطيرة بالفعل، ولكنها جميلة جدًّا!».

قالت لـ«فينتشينزينو» الذي اضطجع بجوارها:

ـ أنا لست برجوازية إلى هذه الدرجة. «نيبيا» لا يفهم شيئًا. نعم زوجته برجوازية، أما أنا فلا.

قال «فينتشينزينو»:

ـ أجل يا عزيزتي.

ثم ناما.

* * *

في اليوم التالي، استدعتها «زينيا» مرة أخرى إلى «فيلَّا رونديني»، وكانا يجلسان هناك في الحديقة، «زينيا»

وعازف الكمان، يشربان عصير الرمان في أكواب خاصة خضراء اللون.

من أجل «زينيا»، كان لا بد من التحدث باللغة الفرنسية، ولم تكن «كاتي» ماهرة في الفرنسية، وشعرت بالخجل.

ثم ذهبوا إلى الصالون، وجلست «زينيا» أمام البيانو. وضع هو منديلًا على كتفه، سند ذقنه إلى الكمان، اشتدت عضلات وجهه، وعزف «الفالس الحزين» لـ«سيبيليوس».

صحبته «زينيا» على البيانو، بنظرة ناعسة وساخرة في عينيها الواسعتين، المثقلتين بظلال الجفون، وكانت تهمهم الموسيقى بشفتين مضمومتين.

ثم ذهب ثلاثتهم معًا للمشي في الغابة خلف الكلاب.

في اليوم التالي جاء هو ليأخذها وذهبا معًا وحدهما بالحافلة إلى المدينة، لمحل الأنتيكات، لأنها كانت قد قالت إنها معجبة بالملاكَين المذهَّبين، وإنها تريد شراء مثلهما.

لكن في حقيقة الأمر لم يعجبها الملاكان، ولكنها قالت هذا لتجامل «زينيا»، ولأنها كانت مسرورة.

لم يكن في محل الأنتيكات ملائكة مثلهما، ولكن كان هناك تمثال لرأس زنجي، وقال هو إنه جميل جدًّا.

اشترته.

وعدها صاحب المحل بإرساله إلى منزلها. ذهبا بعد ذلك إلى مقهى. كان المقهى مُظلِمًا جدًّا وخاليًا، واختارا الجلوس في ركن في نهايته، وكان هو ينظر إليها. لم تكن تعلم ماذا تقول، وكانت تلف الوشاح بين يديها.

شعرت بأنه يكبلها بنظرته، وكأنها في شبكة الصياد، وشعرت بالضيق، وبرغبة شديدة في الهروب، وفي الوقت نفسه برغبة في المكوث في مكانها إلى الأبد.

قال بصوت مداعب:

ـ كم هو رائع أنني قابلتك.

قالت بغباء:

ـ ولكن يجب أن لا تلغي الألقاب بيننا.

شعرت بالخجل على الفور مما قالته. نظرتْ في الساعة وقالت إنه ميعاد الحافلة ولا بد من أن يتحركا.

ولأن الحافلة كانت مزدحمة، استطاعت هي فقط الجلوس، وظل هو واقفًا، بجوار الباب.

أخذت هي، من بعيد قليلًا، تنظر إليه: كان قصيرًا، بشعره الرمادي، يرتدي معطفًا فاتح اللون متسعًا جدًّا. كان يضع يده في جيبه، ويبدو جادًّا، يعتريه حزن طفيف.

عندئذ أخذت تفكر كيف أن كل الرجال، بالنظر إليهم بدقة، يبدو عليهم الضعف والوحدة والجدية، وتشعر نحوهم أي امرأة بالشفقة. وفكرت كيف أن هذا شيء جد خطير.

طلب منها أن يذهب معها إلى منزلها، ليتناول فنجانًا من الشاي.

بينما يتناولان الشاي في الصالون، عاد «فينتشينزينو»، وكعادة «فينتشينزينو» عندما يقدمون له شخصًا، فرد كتفيه ونظر بنظرة حادة، كبرق بارد.

جلس، وتحدث عن الموسيقى وهو ينظر في الفراغ، في همس طويل لا نهاية له. بعدها بفترة استأذن «جورجو تيبالدي» وانصرف.

ذهبت إلى حجرتها، وألقت بنفسها على الفراش. كانت ترغب جدًّا في أن تضحك، ولكن كانت تشعر بالخوف في الوقت نفسه.

قالت لنفسها وهي تضحك: «كم هو قصير! كم هو قصير! قصير جدًّا! وليس وسيمًا، بل قبيح، «فينتشينزينو» أفضل منه، أيضًا «نيبيا» و«البوريللو»».

تخيلته وهو يضع المنديل على كتفه، ويسند ذقنه إلى

الكمان، ويشد عضلات وجهه: والآن لم تعرف لماذا، لكنها شعرت نحوه بالشفقة، بذلك الكمان وذلك المنديل.

نادته مرة واحدة فقط «مايسترو»، وشعرت بأنها سخيفة، لأنها لم تكن معتادة قَطُّ أن تنادي الناس هكذا.

في اليوم التالي وصل رأس الزنجي، ووضعته في الصالون فوق أحد الرفوف. رآه «فينتشينزينو» قبيحًا جدًّا، ورأى «نيبيا» أنه بشع. ولكن قال لها «فينتشينزينو» إنه يمكنها الاحتفاظ به في الصالون، إذا كان يعجبها، فهو لا يمنح اهتمامًا كبيرًا للتزيين والديكور.

في اليوم التالي أتى «جورجو تيبالدي» مجدَّدًا ليصحبها، وذهبا للتجوُّل في الحقل.

وهكذا، أصبحا عشيقَين.

استمر الأمر أيامًا قليلة، ثم رحل هو. أرسل إليها بطاقتين، واحدة من «فيرونا» وأخرى من «فلورنسا»، ليس عليهما سوى توقيعه. كان قد سألها إذا كان يمكنه أن يكتب لها في بعض المرات، خطابات مغلَقة، لكنها رفضت.

كانت تفكر: «لم يكن ما حدث شيئًا ولم يحدث شيء. يحدث هذا لكثيرات. لم يكن شيئًا ولم يعرف عنه أحد شيئًا، ولا بد أن أتصرف كأن شيئًا لم يكُن».

ولكنها شعرت بالضجر من رأس الزنجي، ووضعته في حجرة الأحذية الصغيرة. وأيضًا أخذت تشعر بالضيق عند عودتها إلى «فيلَّا رونديني»، إلا أنها كانت تعود في بعض الأحيان، لأن «زينيا» كانت عادة ما تُعد حفلات شاي، أو حفلات استقبال، وكان يبدو لها أن «زينيا» تبتسم ابتسامة ساخرة غامضة بعينيها المُجهَدتَين، الثقيلتين، بينما تصب لها عصير الفاكهة في الكوب الأخضر، مثل ذلك اليوم البعيد.

في إحدى الأمسيات، عند عودتها من «فيلَّا رونديني»، قالت لـ«فينتشينزينو»:

ـ أتعرف؟ لقد وقعت قليلًا في حب عازف البيانو.

قال هو:

ـ أي عازف بيانو؟

ـ «جورجو تيبالدي».

ـ آه.

قال هو، بعد صمت طويل:

ـ هل مارستما الحب؟

قالت هي.

ـ لا، لا.

ولكن كان قلبها ثقيلًا مثل الحجر لأنها كذبت.

أحيانًا كانت تنخرط في البكاء وهي بمفردها، وتقول: «ولكن لماذا أنا بهذا البؤس؟».

وتقول: «لو لم يكن «فينتشينزينو» غريبًا إلى هذا الحد! لو كان يتحدث معي، لو كان مختلفًا! لو كان مختلفًا، مثل الناس الآخرين! عندئذ كنت سأصبح أنا أيضًا امرأة مختلفة، أكثر صلاحًا!».

ثم بدأت تمارس الحب مع أي شخص، حتى مع «البوريللو»، إلا أنها لم تمارسه مع «نيبيا»، إذ لم يخطر على بالها أن تمارس معه الحب لأنه كان ملتصقًا بـ«بوباتزينا».

كان «فينتشينزينو» يعرف كل شيء، وكانت هي تدرك جيدًا أنه يعرف كل شيء، وكانت تكرهه، لأنه يعرف، ولأنه لا يزال كما كان دائمًا، يتمشى وحده، ويشرب الويسكي، ويكتب مشروعات للمصنع، ويقرأ الكتب وهو منكب عليها.

* *

بعد الحرب انفصل «فينتشينزينو» عن «كاتي»، ووضعا الأولاد في روما في مدرسة داخلية.

طوال فترة الحرب مكثت «كاتي» و«زينيا» مع الأولاد في «سورينتو». خطرت فكرة «سورينتو» لـ«زينيا»، كانت فكرة موفَّقة، لأن الحرب لم تمر من هناك.

ثم تشاجرتا، «كاتي» و«زينيا»، بسبب ملاءة. ولكن كانت مجرد ذريعة، لأن العلاقات كانت قد فسدت منذ فترة طويلة لأسباب غامضة.

رحلت «كاتي» من «سورينتو»، وفي روما استأجرت منزلًا في «فيالي باريولي».

عاد «ماريو» من السجن في ألمانيا ورئتاه في حالة سيئة، ومصاب أيضًا بمرض في أمعائه. عاد، و«زينيا» معه، إلى «فيلَّا روندديني». أحضرت «زينيا» طبيبًا لمعالجة الداء بالداء، من سويسرا، أقام معهم في المنزل ليعالج «ماريو».
عالجه ذلك الطبيب بجرعات صغيرة جدًّا من بودرة خضراء، ثم بعض الأقراص البيضاء، وأمر له بنظام غذائي من الخضراوات النيئة، التي كانت «زينيا» تخلطها له في خلاط كهربائي انتشر وقتها، وأطلقوا عليه اسم «جرجو».

كان «ماريو» سعيدًا.

لكنه مات بعد ذلك بأشهر قليلة، وهو لا يزال مسرورًا وكله ثقة بالطبيب، الذي كان يلعب معه الشطرنج طوال

اليوم. في الأيام الأخيرة، شعر الطبيب بالفزع، فنقله إلى عيادة البلدة، وهناك مات.

تركت «زينيا» «فيلَّا روندينى»، التي ذهب «البوريللو» ليعيش فيها. استقرت «زينيا» في المدينة مع أولادها، وتزوجت الطبيب السويسري، إلا أنها استمرت في ارتداء ملابس الأرملة السوداء، وفي ابتياع عشرات البيضات من البلدة، إذ لم تكن تعد البيض الموجود في المدينة طازجًا.

أما «رافايلَّا»، التي اشتركت في المقاومة، فلم تستطع الاعتياد من جديد على الحياة الهادئة. سجَّلت نفسها في الحزب الشيوعي وكانت تتجول في الريف بدراجتها وتوزع منشورات الدعاية. كان «تومازينو» في المدرسة الداخلية في «ساليتشي»، وعاد بعد الانتهاء من الدراسة الثانوية صبيًّا طويل القامة نحيفًا، سِنُّه نحو ثمانية عشر عامًا.

ذهب «تومازينو» ومعه «رافايلَّا» ليعيشا معًا في شقة صغيرة في قلب البلدة خلف المصنع. كانا يأكلان في مطعم «الكونكورديا». ولكن قال لهما «البوريللو» إن في إمكانهما بناء منزل جميل.

لم ترغب «رافايلَّا» في ذلك، وقالت إن النقود ليست لهما، بل هي ملك للعمال.

ولكن «رافايلَّا» و«تومازينو» أمرا ببناء منزل: منزل حديث جدًّا، مستدير كله وله سقف مُسطَّح، وسلم خارجي دائري مثل سلالم السفن. يقع المنزل هناك، فوق «فيلَّا روانديني»، على قمة الهضبة.

ابتاعت «رافايلَّا» لنفسها حصانًا، لأنها كان لديها جنون الخيل منذ طفولتها.

التحق «تومازينو» بكلية الزراعة، ومكث في المدينة. كان يعود إلى البلدة يوم السبت. تركت «رافايلَّا» الحزب الشيوعي وانضمت إلى حزب للشيوعيين المنشقين، كان به فقط ثلاثة أعضاء في المنطقة كلها.

أما «فينتشينزينو» فقد كان عضوًا في الحزب اليساري المسيحي.

كان «فينتشينزينو» قد خدم فترة الحرب على الجبهة اليونانية، وأُسِر واقتيد إلى الهند. عاد إلى إيطاليا بعد عام وأكثر من نهاية الحرب. وكانت «كاتي» والأولاد في روما.

وضعا الأولاد في مدرسة داخلية؛ إذ كانوا قد أصبحوا صبية، وكان الاثنان، «كاتي» و«فينتشينزينو»، قد اتفقا على أن لا يستمرا معًا.

كانت «كاتي» قد قصَّت شعرها، وأصبحت تصفف شعرها

القصير جدًّا إلى الخلف. أصبح وجهها نحيفًا وقاسيًا، وفمها منحنيًا قليلًا إلى أسفل.

ظل «فينتشينزينو» كما هو، فقط أصبح يرتدي النظارات الآن ليقرأ، لأنه أصبح طويل النظر.

عادا معًا إلى البلدة. ذهبت «كاتي» لتقيم في «الكونكورديا»، وذهب هو لينام في «كازا ميركانتي». لم يعودا الآن زوجًا وزوجته. كانا لطيفين جدًّا، كلاهما تجاه الآخر، فقط من حين إلى آخر، وبسبب شيء تافه، كانا ينفجران في الشجار.

ذهبت «رافايلَّا» إلى «الكونكورديا» لتزور «كاتي».

رغبت «كاتي» في الذهاب إلى المقابر، لتضع الورود على مقبرة «بالوتا» والسيدة «تشيتشيليا». ذهبتا معًا، هي و«رافايلَّا». دُفن «بالوتا» وزوجته معًا في مقبرة بها قبة، تقريبًا مثل الفيلَّا الصغيرة، تحيط بها الأشجار من كل الجهات. كان «بالوتا» قد ابتاع المقبرة منذ فترة طويلة، منذ أن أُصيب بالمرارة.

كانت «كاتي» تبكي وتنظف أنفها بقوة في منديل صغير جدًّا. أمها أيضًا ماتت في أثناء الحرب، في «بورجو مارتينو». تزوجت أخواتها وذهبن ليعشن في مكان آخر.

أما محل الأدوات المكتبية فقد اختفى، إذ أقاموا في موقعه موقفًا للسيارات.

ذهبتا بعد ذلك إلى «لي بيتري»، وهناك كان «باربا تومازو» لا زال منتعشًا، وردي اللون، وسيمًا، ولكنه أصبح كالطفل في كل شيء. لم يعرف «كاتي»، وسأل «رافايلّا» بصوت مرتفع:

ـ من هي؟ من هي؟

كانت «مانيا ماريا» في المطبخ، مع «بينوتشا» الخادمة التي أصبحت تعمل لديهم.

تعانقت «بينوتشا» و«كاتي».

قدمت لها «مانيا ماريا» النبيذ الحلو والتين، وهي تقول:

ـ هكذا إذن، لقد قصصتِ شعركِ؟ ولكن يا لكِ من رائعة! رائعة بالفعل!

لكنها كانت تقولها هذه المرة بثقة أقل من زمن ماضٍ.

وفي طريق العودة، طلبت «كاتي» من «رافايلّا» أن تأخذها خلف «لي بيتري»، إلى المكان حيث قتلوا «نيبيا».

ذهبتا. توجد هناك صخرة ضخمة ومرتفعة وحادَّة، مبقعة بنبات الأُشْنة. كانوا قد قتلوه في تلك البقعة بالتحديد.

أخذت «كاتي» تبكي، وكانت تلمس كل شيء، الصخرة

والأشجار المحيطة بها والعشب حيث عثروا على قبعته... كانت تنظر وتلمس وتبكي.

لم تكن لديها الرغبة في رؤية «جيمينا» ولا «البوريللو». وهكذا عادتا من طريق السيارات، لتجنُّب المرور بـ«الكازيتَّا»، وبجوار غابة «فيلَّا رونديني».

استمرت «كاتي» في البكاء. قالت «رافايلَّا»:

ـ ولكن كم لديكِ من الدموع؟ إنكِ كالنافورة!

لكنها أخذتها معها إلى منزلها، وتركتها لتستلقي على الفراش، وأعطتها قربة المياه الساخنة والأسبرين.

قالت «كاتي»:

ـ ولكن لماذا دمَّرْنا كل شيء، كل شيء؟

قالت «رافايلَّا»:

ـ ما الذي دمرناه؟

أرادت أن تأخذها إلى الإسطبل لترى الحصان قبل أن تذهب. ولم تكن «كاتي» تفهم كثيرًا عن الخيول، إلا أنها نظرت إليه مبتسمة لترضيها، وقالت لها إن جلده لونه جميل. لمست ذيله بإصبعها، ولكن الحصانَ فزع، وخبط بحافره، وشعرت هي بالفزع.

قالت «رافايلَّا»:

ـ كنتِ دائمًا تخافين من كل شيء. هل تتذكرين عندما كنا نذهب إلى الجبل، وكانت قدماكِ ترتعشان في طريقنا للنزول، وكيف كان هذا يُغضب «نيبيا»؟

قالت «كاتي»:

ـ أجل.

ـ وعندما كنا نذهب مع الأطفال إلى مجرى النهر، وكنت أريدهم أن يقفزوا في المياه وكنتِ أنتِ تخافين؟

ـ نعم.

قالتها «كاتي» وعادت مرة أخرى للبكاء.

قالت «رافايلَّا»:

ـ كفى بحق السماء!

في ذلك الوقت كان «فينتشينزينو» قد أتى ليصحبها. غسلت وجهها، وودعت «رافايلَّا»، واتجهت مع «فينتشينزينو» إلى المدق المؤدي إلى «كازا ميركانتي».

قالت «كاتي»:

ـ يا لها من بلدة قبيحة! بلدة وضيعة! لا أعرف كيف استطعت البقاء فيها كل تلك السنوات.

كان لا بد أن يُعدَّا قائمة بالأثاث، وأن يفرغا ما بالحوانيت، ويحصيا الأدوات التي كانت لكل منهما، وأن يحصيا أدوات المائدة والأطباق.

ارتدى «فينتشينزينو» نظارته وبدأ في التدوين في مُفكرة.

أخذت «كاتي» وهي راكعة على البساط تحصي الشوكات والملاعق.

قالت فجأة:

ـ ولكن أنا لا يهمني شيء من تلك الملاعق.

قال هو:

ـ وأنا لا يهمني شيء أكثر منك.

ـ ولماذا إذن نحصيها؟

قال:

ـ لأن هذا ما يفعلونه عادة.

تنهدت، وعادت لتُحصي من جديد، وقالت:

ـ ماذا ستفعل في هذا المنزل؟ هل ستعيش فيه مع أحد؟

قال:

ـ لا أعرف.

قالت:

ـ كان منزلًا جميلًا، إلا أنه لم يكن يعجبني عندما كنت أعيش فيه، وكنت أريد البحث عن منزل آخر، ولكنك أنت لم تكن تريد. هل تتذكر؟

ـ نعم.

قالت:

ـ كنت غبية، غبية، لأنني كنت صغيرة في السن، ليس أكثر.

قالت:

ـ كنت أشعر بالحزن وأنا أرى كل نباتات الكرنب تلك، من غرفة النوم. الآن على قطعة الأرض تلك لم تعُد هناك نباتات الكرنب، لقد بدأوا في بناء متجر، أم ماذا؟

قالت:

ـ وهنا، كان يجلس «نيبيا» في المساء على هذا المقعد، وكان كل شيء جميلًا، وكان يبدو لنا كَلَا شيء، أن يجلس وينام عندنا. والآن لم يعد ممكنًا أن نراه مرة أخرى!

قال هو:

ـ إن السعادة تبدو دائمًا كَلَا شيء، إنها مِثل الماء، لا نشعر بقيمتها إلا عندما نفقدها.

قالت:

ـ هذا حقيقي.

وفكرت قليلًا، ثم قالت:

ـ هكذا أيضًا الشر الذي نفعله، يبدو كَلَا شيء، يبدو شيئًا تافهًا، كالمياه الباردة ونحن نرتكبه. لو لم يكن الأمر كذلك لَما ارتكبه الناس، لتوخَّى الكل الحذر.

قال هو:

ـ هذا حقيقي.

وقالت هي:

ـ ولكن لماذا إذن دمَّرنا كل شيء، كل شيء؟

وأخذت تبكي.

قالت:

ـ لا أستطيع أن أرحل من هذا المنزل! لقد ربَّيت أطفالي هنا، لقد مكثت هنا أعوامًا كثيرة، كثيرة جدًّا! لا أستطيع، لا أستطيع أن أرحل من هنا!

ـ إذن تريدين أن تبقي؟

وقالت هي:

ـ لا.

ورحلَت في اليوم التالي.

* * *

ظلَّ «فينتشينزينو» وحده.

مكث فترة وجيزة في «كازا ميركانتي»، ثم انتقل إلى المنزل حيث يعيش «تومازينو» و«رافايلَّا» على قمة الهضبة.

كان يذهب إلى روما مرة أو مرتين في الشهر ليزور أولاده. كانت «كاتي» تعيش في روما، في شقتها في «فيالي باريولي»، ولم يلتقيا قَطُّ.

كان يُحضِر لأولاده الحلوى والهدايا، وأحضر لهم أيضًا في إحدى المرات نايًا. ولكن لم تكن الموسيقى تهمهم، كانوا يحبون فقط الميكانيكا والمحرِّكات.

ثم حُل الحزب اليساري المسيحي، ولم يعُد هو ينتمي إلى أي حزب. ألَّف كتابًا عن فترة سجنه في الهند، ونال نجاحًا عظيمًا مدويًا.

شعر بالدهشة، والفرح أيضًا، ولكن سرعان ما توقف عن التفكير في الأمر.

الآن في المصنع أصبح هو مَن يأمر وحده. وكان جرًّا

يمكنه أن يفعل ما يحلو له. كانت لديه مشاريع كثيرة وكان في إمكانه تنفيذها. كانت لديه أفكار كثيرة جدًّا.

لم يتغير قَطُّ، كان لا يزال بشعره المجعَّد الأشقر، الثقيل الكثيف كالبساط. لم تكن لديه شعرة بيضاء واحدة، إلا أن سلوكه أصبح واثقًا، متعبًا بعض الشيء وسلطويًّا، الأمر الذي يثير إعجاب النساء.

ربما كان في استطاعته أن يحصل على أي امرأة يريدها، إلا أنه لم يرغب في أي منهن.

عندما كان يذهب إلى المدينة، كان يقضي أحيانًا أمسيته لدى «زينيا». يلعب الشطرنج مع الطبيب السويسري الذي تزوجته «زينيا»، ويشرب الويسكي. يعطيه ذلك الطبيب النصائح من أجل كبده، التي دمرها الويسكي، وجرعات صغيرة جدًّا من تلك البودرة الخضراء، مغلَّفة في أوراق كثيرة.

في البلدة كان أحيانًا يقضي أمسياته مع «البوريللو». ويندهش كيف يعجبه قضاء وقته بهذه الطريقة، مع أعدائه القدامى: «زينيا» و«البوريللو».

كان «البوريللو» لا يزال خائفًا، عندما عاد من سويسرا في أعقاب الحرب كان مرتعبًا، إلى حد أنه انتظر هناك قليلًا

قبل أن يعود، ولم يكن قادرًا على اتخاذ قرار العودة. في البداية كان يظل داخل «فيلَّا روندينى»، من دون حتى أن يذهب إلى المصنع. أصبح نحيلًا جدًّا، أكله الخوف، وكان يمكث في المنزل والقبعة «البورياللو» فوق رأسه، مرتديًا معطفه لأن المياه تجمدت في كل مواسير المدافئ، وانفجرت السخانات. كان لا بد من إشعال مدافئ الحطب، التي لم تكن تعمل، وكانت التدفئة سيئة.

كان يملؤه الندم بأنه كان فاشيًّا، وبدا له الأمر كحماقة هائلة، لا تُغفر، وتلطِّخ حياته كلها. أحيانًا، كان يتحدث عن الانتحار. وكان على «فينتشينزينو» أن يواسيه ويهدِّئه.

كان يتوسل إلى «فينتشينزينو» أن يقول للجميع إنه هو، «البورياللو»، أنقذ «بالوتا»، بأن أخرجه من البلدة. كان الفاشيون سيقتلون «بالوتا المُسن» لو لم يأخذه هو إلى «تشينيانو».

كان «فينتشينزينو» يقول له:

ـ ولكنهم في البلدة يعرفون هذا بالفعل.

وكان ينظر إليه، وهو جالس هناك مرتديًا قبعته «البورياللو»، ولم يحلق ذقنه، وتفاحة آدم تبرز من ياقة قميصه المفتوحة، يداه شاحبتان يغطي ظهرهما الشعر. كان قد كرهه بشدة،

وأنفق كثيرًا من الحقد على تلك الشوارب، وعلى هذه القبعة، على هذا الأنف المعقوف، وأهدر كثيرًا من الكراهية، وأيضًا كثيرًا من الخوف من أنه سوف ينتزع منه المصنع والسُّلطة ومحبة أبيه، ومَن يدري ماذا أيضًا؟ الآن لم يبقَ شيء من كل تلك الكراهية، وهذا أيضًا أمر حزين.

كانت «رافايلّا» تأتي دائمًا لتزور «البوريللو». تعيد إشعال المدافئ التي انطفأت، وتسأله النصح بشأن حصانها. كان «البوريللو» يقول إنه يفهم في الخيل؛ إذ كان لديه في شبابه صديق يمتلك إسطبلًا.

كان يقول أيضًا لـ«رافايلّا» إنه يرغب في الانتحار، لأنه أخطأ ولم يعد لحياته معنًى.

تقول «رافايلّا»:

ـ هل فقدت عقلك؟ هل تريد الانتحار فعلًا! توقف عن هذا فورًا!

ثم تضربه بيدها الثقيلة مثل المطرقة ضربات قوية على ظهره.

تقول:

ـ لم تكن أنت الفاشي الوحيد! كانت إيطاليا مليئة بهم!

ثم تقول:

ـ انضم إلى حزبي.

يقول «البوريللو»:

ـ أنا شيوعي؟ مستحيل!

تقول «رافايلَّا»:

ـ ولكن ألا تعرف أنني لم أعُد شيوعية؟ أنا الآن تروتسكية، من «تروتسكي»، ولكن ربما لا تعرف أنت من كان «تروتسكي».

رويدًا رويدًا استعاد «البوريللو» شجاعته، وعاد ليعمل في المصنع. وعاد أيضًا لمقابلة بعض الناس مثل عائلات «سارتوريو»، و«تيرنزي»، و«بوتيليا».

لم يرغب في الانضمام إلى أي حزب. كان يقول إن السياسة تسبِّب له الغثيان، إلا أنه في المساء، في منزل الجنرال «سارتوريو»، كان أحيانًا يندفع ويقول:

ـ ولكن كان «موسوليني» رجلًا بمعنى الكلمة.

ويضع سبابتَيه في صديريته ويقول:

ـ شيء مؤسف أنه تحالف مع الألمان. لو لم يتحالف مع الألمان لكانت الأمور ستسير في طريق مخالف تمامًا. لو كانت إيطاليا، مثل سويسرا، قد ظلت على الحياد.

ثم يبدأ في الحديث عن سويسرا، التي مكث فيها فترة طويلة، والتي يقول إنه يعرفها ككف يده.

عاد ليتجول مرة أخرى بين المزارع، كما كان يفعل قبل الحرب، لذريعة أو لأخرى، ويضاجع كل الفلاحات. في البلدة، لديه سُمعة أنه زير نساء كبير.

في البلدة، عندما يرون إحدى الفلاحات تحمل طفلًا على ذراعها، يقولون:

ـ هذا أحد أبناء «البوريللو».

ينسبون إليه مئات الأطفال.

ثم بدأت الإشاعات بأنه سوف يتزوج «رافايلَّا». أصابت الدهشة الناس.

ـ «البوريللو» و«رافايلَّا»!

كانوا يقولون:

ـ مسكينة، مسكينة «رافايلَّا»! يا لها من مأساة، يا لها من مأساة!

عرف «فينتشينزينو» هذا من «جيمينا». شعر هو أيضًا بالدهشة، ثم تملَّكه الغضب، حتى إنه كاد يحطِّم كل شيء أمامه.

كان «فينتشينزينو» يعيش في منزل واحد مع «رافايلَّا»، كانا يجلسان معًا على الطاولة نفسها لتناول الغداء والعشاء، إلا أنها لم تقل له أي شيء.

قالت «جيمينا»:

ـ لا بد أن «البوريللو» قد فكر وخطط لهذا الأمر منذ فترة، ربما أيضًا منذ أن كان والدانا على قيد الحياة.

وقالت:

ـ لحُسن الحظ مات «بالوتا» قبل أن يشهد هذا.

كانت «جيمينا»، أحيانًا، للتدليل تنادي أباها مباشرة «بالوتا».

وقالت:

ـ إن «البوريللو» مثل الثعابين، لديه بُعد نظر.

قال «تومازينو»، الذي كان أيضًا حاضرًا معهم:

ـ لم أكُن أعلم أن للثعابين بُعد نظر.

في ذلك المساء قال «فينتشينزينو» لـ«رافايلَّا»:

ـ هل ستتزوجين «البوريللو» فعلًا؟

قالت هي:

ـ نعم.

أما هو، وهو يراها أمامه، فلم يعُد يشعر بالغضب. كان يشعر فقط بالنفور والضيق.

قال:

ـ ولكن لماذا؟

قالت هي:

ـ لأنني أحبه.

تذكر هو أنه عندما تزوج «كاتي»، لم يكُن يحبها، بل كانت لديه نظريات غريبة. وصمت.

طوال الليل، في الفراش، كان يتقلب بين الأغطية ويقول:

ـ ولكن كيف يمكن أن يحب أحد «البوريللو»؟

ولم يهدأ له بال، وأعاد السؤال أيضًا على «تومازينو»، بينما كانا يَحلقان ذقنيهما في الحمام، في الصباح الباكر:

ـ ولكن كيف يمكن لأحد أن يحب «البوريللو»؟

لم يكن «تومازينو» أيضًا يعرف الإجابة.

تَوقَّف تدريجيًّا بعد ذلك عن التفكير في الموضوع؛ لماذا يعذِّب نفسه من أجل الآخرين؟ في نهاية الأمر كلٌّ يفعل ما يحلو له.

وقدم لـ«رافايلَّا»، كهدية زفاف، ثلاجة كهربائية. كانت قد بدأت في الانتشار، ولم يكُن أحد قد اقتنى منها بعد في البلدة.

ذهبت «رافايلَّا» لتعيش في «فيلَّا روندينى». أرادت أن تُحضِر معها حصانها، لكن رفض «البوريللو» ذلك. أين يمكن وضعه في «فيلَّا روندينى»؟ فلم يكُن في «فيلَّا روندينى» إسطبل.

وظل الحصان في «كازا توندا»، هكذا كانت تُطلق «رافايلَّا» على المنزل الواقع فوق الهضبة.

لفترة ظل هناك، يرعاه أبناء الفلاحة. في البداية كانت «رافايلَّا» تذهب كل يوم لتزوره، ثم لم تعُد تتذكره بعد ذلك.

انتهى الأمر بأن باعوه.

لدى «رافايلَّا» و«البوريللو» طفل، اسمه «بيبي».

و«رافايلَّا»، كأم، تخاف جدًّا. تأخذ «بيبي» ليتجول وهو ملتحف بالصوف، ولا تتوقف عن نزع ووضع كنزات مختلفة. لا تحلم حتى بأن تجعله يقفز في مياه المجرى المثلجة، كما كانت تفعل مع أبناء «كاتي» و«فينتشينزينو»، قبل فترة طويلة.

كان «فينتشينزينو» و«تومازينو»، وقد بقيا وحدهما،

يتحدثان أحيانًا. أصبح «فينتشينزينو» يشعر بحب شديد تجاه أخيه الصغير. يحكي له أشياء لم يكُن قد قالها قَطُّ لأحد.

كان يبدأ عادة في المساء، بعد العشاء. ينظر في الفراغ ثم يبدأ في الحديث بهمسه البطيء الطويل.

يتحدث أحيانًا عن «كاتي». كانت لديه، عن مجمل علاقتهما، فكرة غريبة.

كان يتحدث عن ذلك اليوم، في طفولته، الذي رأى فيه «البوريللو» وهو يضرب الكلب بالحجارة.

لم يكن «البوريللو» يحب الحيوانات، وكان هذا شيئًا يعرفه الجميع. لذلك لم يرغب في الحصان.

حسب «فينتشينزينو» أن ذلك التأثير القوي، الذي حدث عليه وهو طفل بسبب هذا الكلب المقتول بالحجارة، قد زرع في نفسه رعبًا كبيرًا من القسوة.

وبفعل الرعب من القسوة، ترك «كاتي» تنفصل عنه، حتى لا يمارس أي عنف تجاهها، حتى لا تتألم، حتى لا يجرحها وتتألم.

وهكذا فقدها.

لم يكُن هذا الاستنتاج المُعقَّد يقنع «تومازينو» كثيرًا، ولكنه كان يبدي موافقته لأن «فينتشينزينو» لم يكن يحب أن يُخطِّئه أحد، عندما يضع شيئًا ما في رأسه.

كان «فينتشينزينو» يقول إنه كثيرًا ما يشعر بالندم على ما فعله لـ«كاتي». لأنه كان يعرف جيدًا، أنه رغمًا عنه جرحها وجعلها تتألم.

وفي مرات كثيرة كان صوتها يعود إلى ذاكرته وهي تقول: «ولكن لماذا؟ لماذا دمَّرنا كل شيء؟».

مرات كثيرة في الليل لم يكن يستطيع النوم، وكان يسمعها وهي تردِّد تلك الشكوى.

كانا يتحدثان حتى وقت متأخر من الليل، ويشربان الويسكي، ثم يذهبان للنوم. وكان «فينتشينزينو»، في حجرته في الدور الأخير، ينام على فراش متغيِّر الوضع، بحيث يمكنه أن يقرأ وهو جالس قبل أن ينام، وقد نقل فكرته من فراش «البوريللو».

كان لدى «فينتشينزينو» الآن معارف كثيرة في المدينة. ولكن في واقع الأمر، كان يرغب في البقاء فقط مع «تومازينو»، أو مع أفراد العائلة الآخرين، مع «رافايلَّا» أو «جيمينا»، أو حتى مع «مانيا ماريا».

ربما لأن هؤلاء الأشخاص عرفوا أيضًا «كاتي»، بينما الآخرون، في المدينة، لم يعرفوها قَطُّ.

أخذ يؤلِّف كتابًا جديدًا، وكانت لديه مشروعات كثيرة، وأفكار عديدة.

تَعرَّض لحادثة بالسيارة في أثناء سفره إلى روما ليزور أولاده. كان وحده. كان الظلام قد حل والجو ممطرًا، وانزلقت السيارة على الأسفلت.

عثر عليه بعض الفلاحين، بعدها بقليل، منطرحًا على مِقوَد السيارة، واستدعوا سيارة الإسعاف.

مات في المستشفى. استطاع «البوريللو»، الذي اتصلوا به، أن يصل قبل اللحظة الأخيرة ليودِّعه. أما «تومازينو» فقد وصل متأخرًا.

* * *

يأكل «تومازينو» وحده، وهو يسند الكتاب إلى الكوب. تأتي «بيتا» الفلاحة لتُعد له الطعام.

«بيتا» تروح وتجيء من المطبخ، وهي قصيرة، ضخمة، عريضة، ترتدي ثوبًا من القطن الناعم ذا نقاط بيضاء.

تقول «بيتا»:

ـ هل أعجبتك شريحة اللحم يا «تومازينو»؟

تحدِّثه «بيتا» بلا ألقاب، لأنها تعرفه منذ طفولته.

تقول «بيتا»:

ـ وغدًا، لأننا لا يزال لدينا بعض لحم الضأن، سأقطعه جيدًا، قِطعًا صغيرة، وسأطهيه على نار هادئة مع بصلة.

تقول:

ـ الآن انتهيت من غسل الأطباق، سأكنس، ثم أغسل الملابس، وبعد ذلك سأضع الفاصوليا لأنقعها في المياه، وهكذا عندما أحضر غدًا، سأطهيها مع بعض البقدونس والثوم واللحم. ما رأيك؟

يجلس «تومازينو» على المقعد ممسكًا بكتابه قريبًا من المصباح.

تقول «بيتا»:

ـ وحيدًا هكذا، أيها العزيز المسكين. لا بد وأن تختار لنفسك زوجة جميلة. إنك غني ووسيم، وشاب، وهنا في البلدة عديد من الصبايا، جميلات وثريات وصالحات، جميعهن في انتظارك.

تقول:

ـ «تومازينو»، هل ترغب في وضع هذا الشيء هناك؟

الشيء هو المُسجِّل. عندما يجلس «تومازينو» وحده في المساء يتحدث في المُسجِّل إذا خطرت له أي أفكار.

ثم يأخذه معه إلى حجرة النوم، لأنه عندما يذهب إلى فراشه، ويكون على وشك النوم، تأتيه أيضًا أفكار أخرى.

حجرة الطعام في «كازا توندا» متسعة الأرجاء، ونوافذها زجاجية، فارغة تقريبًا، إذ لم يفكر أحد قَطُّ في أن يضع فيها أي أرائك أو لوحات.

تقول «بيتا»:

ـ أنا، لو كنت غنية مثلك، كنت سأضع خِزانة لأدوات المائدة وفوقها رفوف خاصة للأطباق هناك على ذلك الحائط. الآن يتطلب الأمر السير من أجل الأطباق، عليَّ أن أذهب إلى المطبخ لأحضرها.

تظهر الهضبة العارية من خلف الزجاج، ثم تظهر بعدها أشجار «فيلَّا رونديني»، ثم البلدة، وأنوار «كاستيللو» و«كاستيل بيكولو»، والسماء في الليل.

تقول «بيتا»:

ـ شاب مثلك يجب أن لا يبقى وحيدًا أبدًا. شاب مثلك،

ثري جدًّا، لا بد وأن يكون لديه كثير من الأصدقاء، وشابات، وصخب دائم.

تقول:

ـ لو كان لديَّ أنا كثير من الأموال، لَمَا بقيت هنا، لكنت ذهبت دائمًا لأتجول، وسافرت أستمتع بالعالم. لَمَا بقيت أبدًا في مكاني، كنت سأسافر طوال الوقت.

تقول:

ـ ففي كل الأحوال انتزع «البوريللو» المصنع منك.

تقول:

ـ أنت تمتلك النقود، ولكنه هو الآمر الناهي. وعندما يعود أبناء «فينتشينزينو»، بعد أن يكبروا، لن يتبقى لهم شيء، لأن كل شيء سيؤول إلى «بيبي».

تقول:

ـ ولكن لا أعتقد أن أي شيء يهمك، فلا شيء يقلقك، وفي نهاية الشهر تصل إليك نقودك في كل الأحوال.

تقول:

ـ أنت شاب طيب، أنيق، مهذب، وليست لديك الشجاعة لتصارع «البوريللو».

تقول:

ـ الآن سأذهب إلى منزلي، وأجلس بجوار المدفأة لأتدفَّأ، وأعدِّل ثوبًا. هو ثوب بني اللون، قديم، لا بأس به، ولكنه لم يعُد يعجبني. لهذا فكرت في التالي: سأعيد حياكته، لأن «مانيا ماريا» أعطتني حريرًا أحمر، قليلًا من القِطع الصغيرة، سأعيد أنا بتلك القِطع خياطة الكُمَّين، بزنديهما، والياقة.

يقول «تومازينو»:

ـ فكرة جيدة.

ـ وبالنسبة إلى الأزرار، اشتريت بالفعل بعض القلوب، وسآخذها لـ«تشينيانو» لتغليفها.

ـ اشتريت قلوبًا؟

ـ تلك القوالب السوداء الخاصَّة بالأزرار.

ـ آه.

ـ والياقة، سأصنعها مستديرة وعالية.

ـ حسنٌ.

ـ إذن، عِمت مساء، سلام يا «تومازينو».

ـ سلام.

يمكث «تومازينو» هنا، ويبدأ في لف شعره حول أصابعه. ثم يعيد كل شعره إلى الوراء، ويذهب إلى آلته الكاتبة ويكتب بعض الكلمات.

ثم ينهض، ويضع معطفه القديم، القصير جدًّا، المتهالك عند الأكمام، ذا الجيوب الممزَّقة. قالت له «جيمينا» منذ فترة إن عليه أن يطلب معطفًا جديدًا.

يحتفظ بسيارته في جراج فندق «كونكورديا»، فالسيارة لا يمكنها الصعود إلى حيث توجد «كازا توندا».

في بار «الكونكورديا» يشرب «مارتيني» بالكينا، إذ لا يوجد كثير من الاختيارات هناك.

يركب سيارته ويذهب إلى السينما في «تشينيانو».

يعرضون فيلم «الظلمات المحرقة».

يجلس هناك، في نهاية القاعة الفارغة تقريبًا، ممسكًا بسيجارته، وياقة معطفه مرفوعة، ويده في جيبه.

وفي بار «تشينيانو»، يشرب «بيسليري» بالكينا.

يعرفه الجميع ويلقون عليه التحية. يجيب هو برفع يده نحو جبهته، في تحية تشبه التحية العسكرية، ولكن مترهلة، تحية استمرت معه منذ أيام المدرسة الداخلية.

يعود إلى المنزل، يرتدي ملابس النوم، يدور في المطبخ حافي القدمين، ينظر إلى داخل الآنية حيث توجد الفاصوليا المنقوعة.

ثم يجلس على فراشه، ومعه آلته الكاتبة فوق ركبتيه، ويكتب بضع كلمات.

ثم يحك رأسه بقوة، يتثاءب، يكرمش أنفه، ثم يتدثر أسفل الأغطية.

المسجِّل موجود على الطاولة الصغيرة بجوار الفراش. يقول شيئًا، ويستمع إلى صوته الذي يتمتم بغموض في المُسجِّل، وجود غريب وبائس في المنزل الفارغ.

يضع رأسه أسفل الوسادة، يطفئ الأنوار وينام.

يقضي «تومازينو» معظم أمسياته بهذه الطريقة.

أحيانًا يذهب إلى «فيلَّا رونديني». وأحيانًا أخرى يذهب إلى حفلات راقصة ويرقص مع الشابات، إذا كانت رقصة فالس.

لا يعرف رقصات أخرى، فقط الفالس.

في «فيلَّا رونديني» يثير غضب «رافايلَّا»، لأنه يضايق «بيبي».

لم تتغير «فيلَّا رونديني» كثيرًا، منذ زمن «زينيا» و«ماريو».

أخذت «زينيا» عند رحيلها كل الأثاث، ولكن «البوريللو» ابتاع أثاثًا مشابهًا له، إذ ليس لـ«البوريللو» أي شخصية، كما كان يقول «فينتشينزينو» دائمًا.

يجلس «البوريللو» هناك ومعه «بورزاجي»، في زاوية من الصالون، يلعبان الشطرنج.

ومع ذلك يسأل «البوريللو» «تومازينو»:

ـ كيف تسير الأمور في دراستك الخاصَّة بالبرمجة الخطية؟

وتسأل «رافايلَّا»:

ـ ولكن ما معنى البرمجة الخطية تلك؟

ـ البرمجة الخطية مثل خط مستقيم يمتد من السلع المُنتَجة إلى السلع المُستهلَكة، مباشرةً.

يشرح «تومازينو»، وقد كست الحمرة وجهه، لأن «بورزاجي» هنا، ويهمُّه أن يسمع «بورزاجي» ما يقوله.

يشرح، ويستعين على الشرح بإيماءات أصابعه الطويلة، البيضاء النحيفة، ويحمر وجهه قليلًا، لأن البرمجة الخطية موضوع عزيز على قلبه، ويخجل أن يتحدث عنه هكذا بصوت مرتفع.

تقول «رافايلَّا»:

ـ لم أفهم ولو كلمة واحدة.

وتقول له:

ـ «تومازينو»، لماذا لا تنضم إلى حزبي؟

لا يزال حزبها هو حزب الشيوعيين المُنشقين. ولكنها الآن لم تعُد تفكِّر كثيرًا فيه، وتتذكره فقط من حين إلى آخر، لتثير غضب «البوريللو»، لأن الشيوعيين، المنشقين وغير المنشقين، يسببون له ألمًا في معدته. لم تعُد تفكِّر في ذلك كثيرًا، لأنها الآن تفكر فقط في «بيبي».

تقول «رافايلَّا»:

ـ أنت يا «تومازينو»، لا شك أنك ذكي جدًّا. شيء مؤسف أنك غير مستقر. لماذا لا تتزوج؟

يقول «تومازينو»:

ـ ليست لديَّ الرغبة.

يقول «البوريللو»:

ـ لقد تزوج بالبرمجة الخطية.

ويغمز بعينه لـ«بورزاجي»، الذي يبتسم متفقًا معه.

يذهب «تومازينو»، تقريبًا كل يوم، إلى المصنع.

أحيانًا لا يجد ما يفعله هناك. لديه حجرة جميلة، ومكتب جميل، وهاتف به كثير من الأزرار الحمراء والخضراء، ومقعد دوَّار، يدور عليه نصف دائرة من حين إلى آخر.

لديه مسند كبير للكتابة مغربي الطراز، مليء بالورق النشاف، عليه قلم مثبَّت في حامل للأقلام، ورزمة للملاحظات، وقلم رصاص مثبَّت بسلسلة.

يعبث بالقلم على الورق النشاف، ويكتب على رزمة الملاحظات «قلوب الأزرار. كرات سوداء صغيرة».

عندئذ يحني رأسه على المكتب، يضغط بسبابتيه على جفنيه، ويفكر في البرمجة الخطية، خط يذهب مستقيمًا من المنتج إلى المستهلك، مباشرةً.

* * *

نتقابل أنا و«تومازينو» كل يوم أربعاء في المدينة.

ينتظرني أمام مكتبة «سيليكتا». يقف هناك بمعطفه القديم، الرث بعض الشيء، ويداه في جيبيه، مستندًا إلى الحائط.

يحيِّيني، وهو يرفع يده على جبهته ويبعدها، بأناقة خاملة.

نلتقي فقط في المدينة. في البلدة نتحاشى أن نتقابل؛ هو يريد ذلك.

منذ شهور عديدة نتقابل بهذه الطريقة، يوم الأربعاء، وأحيانًا كثيرة أيضًا يوم السبت، في ناصية الشارع تلك، ونفعل دائمًا الأشياء نفسها: نبدِّل الكتب في مكتبة «سيليكتا»، ونبتاع بسكوت الشوفان، ونبتاع لأمي خمسة عشر سنتيمترًا من شريط الحرير المضلَّع الأسود.

ونذهب إلى حجرة، يستأجرها هو، في شارع «جوريتسيا»، في الطابق الأخير.

الحجرة بها مائدة مستديرة في وسطها، تغطيها قطعة بساط، وعلى المائدة جرس زجاجي، في داخله فروع من المرجان. يوجد أيضًا فرن صغير خلف ستارة ليمكننا أن نُعد القهوة، إذا أردنا ذلك.

يقول لي هو أحيانًا:

ـ لتعلمي أنني لن أتزوجك.

وأضحك أنا وأقول:

ـ أعرف هذا.

يقول:

ـ أنا لا أرغب في أن أتزوج، ولكن إذا انتويت الزواج، فقد أتزوجك أنت.

ويقول:

ـ هل يكفيكِ هذا؟

أقول:

ـ سأجعله كافيًا.

تلك هي عبارة خادمتنا «أنطونيا»، عندما تسألها أمي إذا كان لديها ما يكفي من الجبن.

أقول له:

ـ والبرمجة الخطية؟

يقول:

ـ بخير، شكرًا.

يستلقي ويداه معقودتان أسفل رأسه، بوجهه النحيف، الدقيق، وفمه الجاد.

يسألني أحيانًا:

ـ وأنتِ؟

ـ أنا، ماذا؟

ـ وأنتِ؟ و«صغيرات بوتيليا»؟

نعود إلى البلدة في آخر حافلة، التي ترحل في العاشرة مساءً.

يجلس بعيدًا عني، في نهاية الحافلة، وياقة معطفة مرفوعة، وهو ينظر من النافذة.

ننزل في الميدان، أمام فندق «كونكورديا»، ويحييني بطريقته المعتادة. ويذهب كل منا في اتجاه، هو تجاه الممر الحاد المؤدي إلى «كازا توندا»، وأنا إلى المدق المحاذي لغابة الجنرال «سارتوريو».

أتناول بعض العشاء في المطبخ، وتنظر إليَّ أمي.

تقول:

ـ اليوم كنت على ما يرام طوال اليوم، ولكن في المساء شعرت بفراغ بارد في معدتي، وكان لا بد أن آكل بسكوتة.

تقول:

ـ هل أحضرتِ لي بسكوت الشوفان؟

* * *

عندما تحصي أمي في ذهنها رجال البلدة الذين يمكن أن أتزوج واحدًا منهم، لا يخطر «تومازينو» لها أبدًا.

ربما تجده غنيًّا جدًّا، شيئًا لا يمكن الوصول إليه، ثم إنها تراه شخصًا غريبًا، يدور في البلدة بملابس تشبه ملابس الفقراء، شاحب الوجه، ولا بد أن صحته سيئة.

وتقول إن كل أبناء «بالوتا»، لسبب أو لآخَر، الأحياء منهم والأموات، يشوبهم دائمًا نوع من الغرابة، أفكار غير عادية، وهم من الباحثين عن التعاسة.

وعندما تبدأ أمي في النظر إليَّ، بينما أتناول عشائي في المطبخ مساء الأربعاء، ما أبعد فكرة أننا، أنا و«تومازينو»، كنا معًا منذ بضع ساعات في الطابق الأخير من شارع «جوريتسيا»، عن مخيلتها!

لا تعرف أمي حتى إن شارعًا يُدعى «جوريتسيا»، فهي نادرًا ما تذهب إلى المدينة.

تقول لها الخالة «أوتافيا»:

ـ لماذا لا نذهب أحيانًا إلى المدينة؟

تقول أمي:

ـ لأي غرض؟

* * *

أحيانًا يكون «تومازينو» سيئ المزاج، ولا يتحدث.

عندئذ أقترح عليه أن نتجول قليلًا، ونبدأ في مسيرة لا تنتهي، في صمت، في الحديقة وبجوار النهر.

نجلس على إحدى الأرائك. خلفنا، في وسط الحديقة، توجد القلعة، بأبراجها الحمراء، والسلالم الدائرية،

والجسر المتحرك، وعلى أحد الجانبين توجد شرفة المطعم ذات النوافذ الزجاجية، المهجورة في تلك الساعة، ولكن يقف فيها نادلان بين الموائد، وهما يمسكان بفوطة الطعام أسفل ذراعيهما.

نجلس والنهر أمامنا، صامت، بصفحته الخضراء، والقوارب الشراعية مربوطة على الشاطئ، وكوخ الإبحار مُقام على الركائز، والسلالم الخشبية تلطمها الأمواج.

يربت هو على وجهي. يقول لي:

ـ مسكينة «إلسا»!

أقول:

ـ لماذا مسكينة؟ لماذا أبدو لك مسكينة؟

ـ لأنكِ وقعتِ معي، وأنا إنسان بائس.

أقول له:

ـ ولكن ما زال لديك البرمجة الخطية.

يقول:

ـ آه تلك، معي في كل الأوقات.

ويضحك.

نمشي طويلًا على شاطئ النهر. ينظر حوله ويقول:

ـ ولكن المنطقة هنا ريفية بالفعل. نحن نأتي إلى المدينة، ولكننا مع ذلك نذهب بحثًا عن الريف، أليس كذلك؟

أقول له:

ـ لماذا نتظاهر بأننا لا يعرف كلانا الآخر في البلدة؟

يقول:

ـ لأننا غريبا الطباع.

يقول:

ـ من أجل سُمعتك. لا بد أن لا أتسبب لك في أي إساءة، لأنني لن أتزوجك.

أضحك وأقول:

ـ أنا لا أهتم ولو ذرةً واحدةً بسمعتي.

يلف شعره حول أصابعه، يتوقف وهلة ليفكر، ويقول:

ـ في البلدة لا أشعر أنني حر. كل شيء ثقيل على قلبي.

ـ ما الذي يثقل عليك هناك؟

يقول:

ـ كل شيء يثقل عليَّ: «البوريللو»، المصنع، «جيمينا»، حتى الأموات.

يضايقني حتى من ماتوا، أتفهمين؟
في مرة من المرات، سأترك كل شيء وسأذهب بعيدًا.

وأنا أقول له:

ـ هل ستأخذني معك؟

يقول:

ـ أعتقد لا.

نسير قليلًا في صمت.

يقول لي:

ـ يجب أن تعثري على شخص يتزوجك. ليس على الفور، ربما بعد فترة.

يقول:

ـ لستِ في حاجة إلى أن تتزوجي على الفور، لِمَ العجلة؟

يقول:

ـ فأنتِ معي هكذا، على ما يرام.

أقول:

ـ معك، هكذا، يومَي الأربعاء والسبت؟

يقول:

ـ نعم، أليس كذلك؟

أقول:

ـ علينا الآن أن نعود؛ سرعان ما سيحين ميعاد الحافلة.

في طريق العودة نعبر الحديقة من جديد، ونسير بجوار سور القلعة، ونعبر الجسر الذي يتذبذب أسفل عجلات الترام.

يقول:

ـ لا أقول إن الوضع الحالي، هكذا، وضع مثالي بالنسبة إليك.

أقول له:

ـ وبالنسبة إليك؟ ما الوضع المثالي بالنسبة إليك؟

يقول:

ـ أنا، أنا شخص بلا مثاليات.

أضحك وأقول له:

ـ مسكين «تومازينو».

يقول:

ـ لماذا مسكين، وأنا أمتلك كل تلك الأموال؟

* * *

كان الصباح، وكنت قد استيقظت للتو، وأقف في الشرفة؛ ورأيت السيدة «بوتيليا»، التي كانت ممسكة بشوكة التقليم وتعزق حوض الزهور.

قالت لي:

ـ هاي، أهلًا.

السيدة «بوتيليا» طويلة ونحيفة؛ لها وجه قمحي اللون، تغطيه التجاعيد، ونظارة ضخمة مستديرة بإطار من صدفة السلحفاة، وفك مربع.

كانت ترتدي قبعة من القش، ومريلة، وتضع قدميها العاريتين في خُفَّين.

قالت:

ـ ماذا قال الطبيب لأمك؟

قلت:

ـ ضغط مرتفع.

ـ ماذا؟

ـ ضغط مرتفع.

قالت أمي وهي تخرج لها:

ـ مرتفع مرتفع، مرتفع جدًّا.

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ إذن لا لحوم بعد الآن.

دعتها أمي إلى الدخول وتناول بعض القهوة.

قالت أمي:

ـ أمس كنت أشعر كأن في حلقي بندقة تكاد تخنقني. هذا الصباح يبدو كل شيء على ما يرام.

جلست الاثنتان في المطبخ، وكانت أمي تصب القهوة من إبريق صنع القهوة، المغطى بقلنسوة من التريكو.

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ ولكن مع الضغط المرتفع يجب عدم تناول القهوة. لا بد من التوقف عن أكل اللحم وشرب القهوة.

أمي تحب القهوة.

ـ وماذا يمكنني أن أشرب إذن في الصباح؟ في الصباح عندما أستيقظ تكون معدتي باردة مثل الثلج.

وقالت:

ـ وأنتِ كيف تستطيعين البقاء من دون جوارب؟

رفعت السيدة «بوتيليا» إحدى قدميها، وأخذت تنظر إلى ساقها قمحية اللون، وفي الجزء الخلفي منها عِرْق بارز، لونه أزرق.

قالت أمي:

ـ ومصابة بالدوالي أيضًا. لا بد وأنكِ مجنونة لتسيري هكذا في الصباح، في هذا البرد!

قالت السيدة «بوتيليا»، وهي تضغط بإصبعها على العِرْق:

ـ لا أعتقد أنها الدوالي، فهي لا تؤلمني على الإطلاق.

قالت أمي:

ـ وإذا لم تكُن الدوالي، فماذا تكون إذن؟

قلت:

ـ وأين «جوليانا»؟

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ «جوليانا» استيقظت مبكرًا، وأتى «جيجي سارتوريو» ليأخذها، وذهبا إلى ملعب التنس.

قالت أمي:

ـ التنس؟ وكيف هذا؟ ألم تكن إحدى ذراعَي «جيجي سارتوريو» في الجبس!

ـ لا يلعبان، فقط يشاهدان، فهناك مباريات.

قالت أمي:

ـ آه، يشاهدان! ولماذا لا تذهبين أنتِ أيضًا يا «إلسا»، لتشاهدي المباريات؟

قلت:

ـ لا بد أن ألحق بالحافلة في منتصف النهار.

قالت أمي:

ـ آه بالفعل، اليوم السبت.

وشرحت للسيدة «بوتيليا»:

ـ في البداية كانت تذهب إلى المدينة يوم الأربعاء فقط، أما الآن فأصبحت تذهب أيضًا يوم السبت، لتبدل الكتب لـ«أوتافيا» التي تقرأ كثيرًا.

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ اشتري لي كيسًا صغيرًا من خميرة البيرة. غدًا أريد أن أعد تورتة «باراديزا»، سيأتي «البوريللو» لتناول الغداء معنا.

اندهشت أمي، وقالت:

ـ «البوريللو» بمفرده!

ـ نعم، لأن «رافايلَّا» ذهبت إلى البحر مع «بيبي». كان لديه ألم شديد في حلقه، تَسبَّب له ذلك في ورم شديد في لوزتيه.

قالت أمي وهي تتحسس رقبتها:

ـ ولكن «بيبي» ذلك يُصاب بشيء دائمًا. شيء غريب، إذا ضغطت بقوة تؤلمني. ربما هما اللوزتان إذن.

قالت أمي:

ـ وبعد الانتهاء من المشتريات، تذهب «إلسا» لتقضي الظهيرة مع أصدقائها، عائلة «كامبانا».

كنت قد تعرفت على عائلة «كامبانا» في وقت الجامعة.

قالت أمي:

ـ لديهم منزل جميل في شارع «نوفارا»، وهم أيضًا شديدو الثراء.

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ عائلة «كامبانا»؟

ـ عائلة «كامبانا».

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ «الصغيرات» أيضًا يعرفونهم. ولكنه أصيب بأزمة قلبية، وهو الآن في المستشفى.

قالت أمي:

ـ أصيب بأزمة قلبية؟

ثم قالت لي:

ـ وكيف لم تقولي لي شيئًا؟
ولكن متى أُصيب بتلك الأزمة القلبية؟

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ الشهر الماضي.

ـ أزمة قلبية! «كونسالفو كامبانا»!

ـ «كونسالفو كامبانا».

وعندما انصرفت السيدة «بوتيليا»، بقبعتها الضخمة، لتعزق الحديقة، قالت لي أمي:

ـ ولكن كيف لم تخبريني بشيء في ما يتعِلق بتلك الأزمة القلبية؟

قلت:

ـ كانت صغيرة.

ـ صغيرة؟ أزمة قلبية صغيرة؟

ثم عادت تقول بعد وهلة:

ـ صغيرة أو كبيرة، لقد نقلوه إلى المستشفى. كيف لم تخبريني بأي شيء؟ كنت سأكتب خطابًا، أو أرسل بعض الزهور. إن عائلة «كامبانا» عائلة لطيفة جدًّا معك.

قلت:

ـ أرسلت أنا إليهم الزهور.

ـ آه، أرسلتِها أنتِ؟ أي نوع من الزهور؟

ـ الورد.

ـ أي لون؟

ـ الأبيض.

قالت أمي:

ـ ولكن الورود البيضاء نرسلها إلى العرائس أو إلى مَن أنجبن، كان من الأفضل إرسال القرنفل للرجل.

وأين عثرتِ على الورود في هذا الموسم؟ لا بد وأنكِ دفعتِ ثروة إذن.

بينما أرتدي ملابسي في حجرتي، دخلت «جوليانا بوتيليا».

قالت:

ـ هل أزعجك؟

كانت ترتدي تنورة بيضاء ذات ثَنْيات، وبلوزة بيضاء، وتضع على كتفيها منديلًا، طُبعت عليه خريطة لندن.

قلت:

ـ لندن؟

ـ نعم، لندن. أحضره لي «جيجي سارتوريو»، عندما ذهب إلى هناك آخر مرة.

ـ لماذا يذهب «جيجي سارتوريو» إلى لندن؟

ـ أعمال تجارية.

ـ وفيمَ يعمل؟

ـ لا أعرف.

ـ هل يتودَّد إليكِ «جيجي سارتوريو»؟

ـ لا، إنه مجرد صديق.

ـ هل كانت المباريات جيدة؟

ـ نعم، كانت جيدة، فاز فريق «تشينيانو». انهزم «تيرنزي».

ـ ينهزم دائمًا.

ـ ليس دائمًا، ولكن اليوم انهزم.

كانت قد جلست وبدأت تصنع التموجات في شعرها بالمشط.

قالت:

ـ لم أعد صديقتك، أليس كذلك؟

قلت:

ـ فلتكُفِّي عن هذا!

ـ لقد كنا صديقتين من قبل، لم يكن بيننا أي أسرار.

قالت:

ـ إذن فهو حبيبك، أليس كذلك؟

كنت قد انحنيت لأبحث عن فردتَي الحذاء أسفل الفراش.

قلت:

ـ لا بد أن أذهب الآن، لألحق بالحافلة.

ـ إنه حبيبك، أعرف هذا.

كنا في تلك اللحظة نسير على الممر. كنت أضع في الشبكة الكتب الخاصة بمكتبة «سيليكتا»، والمغلفة بغلاف أزرق.

قالت:

ـ لو كنت أشعر بأنكِ سعيدة، لما سألتكِ شيئًا، ولكنكِ لا تبدين سعيدة على الإطلاق.
في بعض المرات أراكِ تعبرين وأنا واقفة عند مدخل المنزل. تسيرين بطريقة يُفهم منها أنكِ لستِ سعيدة. تُلقِين بشعركِ إلى الوراء، وتسيرين بخطوات سريعة متسعة، تتظاهرين بالثقة، ولكن في الوقت نفسه، تبدو عليكِ التعاسة.

قلت:

ـ هل حقًّا يتعاطى «جيجي سارتوريو» المورفين؟

ـ لا يتعاطي أي مورفين، يأخذ فقط مسكنًا للألم حاليًّا، لأن ذراعه تؤلمه.

*　　*

قال «تومازينو»:

ـ أنتظركِ منذ أكثر من ساعة.

ـ لم ألحق بحافلة الظهيرة؛ اضطررت إلى انتظار التالية.

ـ وكيف لم تلحقي بالحافلة؟

ـ كنت مع «جوليانا بوتيليا»، التي أرادت أن تصحبني، وكانت تتكلم، هكذا تأخرت.

ـ ولماذا تضيعين الوقت مع تلك الغبية؟

قلت:

ـ إنها تعرف عنِّي وعنك.

ـ تعرف؟ وكيف عرفت؟

ـ لأن أختها «ماريا» رأتنا في أحد البارات وكان معها «ماريا موسو».

ـ وماذا تقول عنا كل أولئك «الماريات»؟

قلت:

ـ لا أعرف. «جوليانا» ترى أنني لست سعيدة.

ـ إنها غبية.

ـ لماذا؟ هل أبدو سعيدة؟

قال:

ـ أنا لا أعرف كيف تبدين.

ـ ألا تعتقد أنه شيء سيِّئ أنك لا تعرف هذا؟

ـ لا يبدو لي سيئًا ولا جيدًا. لا أطرح على نفسي السؤال.

قلت:

ـ شكرًا.

ـ شكرًا على ماذا؟

ـ شكرًا، بلا سبب.

قلت:

ـ كيف تستطيع أن تكون كريهًا بهذا الشكل؟ كم يمكنك أن تكون شخصًا كريهًا!

كنا في شارع «جوريتسيا»، وقلت:

ـ لا أشعر بالرغبة في الصعود اليوم.

ـ لماذا إذن أتينا حتى هنا؟

أخذت أسير وهو يتبعني. كنت أسير بلا هدف، وأنا أهز الشبكة التي تحتوي على الكتب.

قال:

ـ أعطيني الشبكة، سأحملها أنا عنكِ. على الأقل كان يمكننا تركها لدى البواب في شارع «جوريتسيا»،

تلك الشبكة اللعينة. ألا تكتفي جدتكِ من قراءة تلك الروايات؟

قلت:

ـ ليست جدتي، بل خالتي.

قال:

ـ خالة أو جدة، لا فارق.

قلت:

ـ إنك تعرف جيدًا أنها خالتي. إنك دقيق كموظف السجلات، وذاكرتك جهنمية. لقد قلتَ هذا لتضايقني.

قال:

ـ هذا حقيقي.

وابتسم.

ـ أعرف أنها ليست جدتكِ، بل خالتكِ. قلت هذا من غضبي، لأنني انتظرت كثيرًا، وأنا لا أحب الانتظار.

قال:

ـ لقد كرهت باب مكتبة «سيليكتا»، وأنا أقف هناك في انتظارك.

قال:

ـ تَملَّكنِي الخوف من أن يكون قد أصابكِ مكروه، أن تكوني مريضة، أو أن تكون الحافلة انقلبت.

قال:

ـ إذن صغيرة «بوتيليا» ترى أنكِ لستِ سعيدة؟

قال:

ـ لماذا لستِ سعيدة؟

قال:

ـ عندما أكون هناك في منزلي، في «كازا توندا»، أنظر حيث يوجد منزلك، أنظر وأفكر: تُرى ماذا تفعل الآن؟ تُرى هل هي حزينة أم سعيدة؟
هل يعجبكِ أن أفكر هكذا وأنا هناك وحيدًا؟

قال:

ـ هل يبدو لكِ ما أعطيه قليلًا؟ حبًّا قليلًا؟

قلت:

ـ نعم، يبدو لي حبًّا قليلًا.

قال:

ـ لكن هذا كل ما يمكنني منحه. لا أستطيع منحكِ أكثر من هذا، فأنا لست عاطفيًّا، أنا شخص ذو طابع انطوائي، أعيش وحدي، ليس لي أصدقاء، ولا أبحث عن أحد.

قال:

ـ تسعد النساء مع الرجال ذوي المشاعر الجياشة والرومانسيين.

ولكنني كنت يائسًا، عندما كنت أنتظرك منذ قليل على ناصية الطريق. كنت أقول لنفسي: ماذا سأفعل إذا لم تأتِ؟ إذا ماتت؟

كنت أقول لنفسي: كيف سأعيش إذا ماتت؟

كنا قد وصلنا في ذلك الوقت إلى الحديقة، وكنا نسير بين الأشجار العارية، ونحن نطأ العشب الذي حرقه الصقيع.

قال هو:

ـ تلك الغرفة في شارع «جوريتسيا» كئيبة. يمكننا أن نستأجر غرفة أخرى، في شارع أجمل. يمكننا أيضًا أن نستأجر منزلًا بأكمله. هل سيمنعنا أحد؟

قال:

ـ أتريدين أن نبحث عن منزل جميل ومريح، به مطبخ، حيث يمكننا أن نطهي بعض الطعام؟

قلت:

ـ هل تستحق تلك الساعات القليلة كل هذا العناء؟ إنهما أمسيتان فقط في الأسبوع، يومَي الأربعاء والسبت.

ـ كيف لا يستحق الأمر العناء؟ ألا يستحق الأمر أن نرتاح، ولو ساعات قليلة؟

قال:

ـ هل ترغبين في أن نذهب الآن إلى شارع «جوريتسيا» لبعض الوقت؟

* * *

كنت قد عدت للتو، وكنت أتناول الطعام وأنا جالسة أمام مائدة المطبخ. أخذت أمي تفرغ الشبكة على المائدة، وتخرج كتب «سيليكتا»، واحدًا تلو آخَر. كانت تنظر إلى الأغلفة وهي تضم شفتيها.

قرأت: «قطة على سقف صفيح ساخن» ثم قالت:

ـ أوه! الحيوان المسكين!

قالت:

ـ وأين خميرة البيرة؟ هل نسيتِها؟

ـ نعم.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ فيمَ سنستخدم خميرة البيرة؟ لا نحتاج إلى أن نُعد أي تورتة.

قالت أمي:

ـ لم تكُن لنا بل لـ«فيلَّا بوتيليا». «الصغيرات» هناك، عندما أطلب منهن شيئًا يتذكَّرْن دائمًا.

دق جرس البوابة.

قالت أمي:

ـ ومَن يكون الطارق في هذه الساعة؟ الساعة تقريبًا الحادية عشرة. يا إلهي! قد يكون تلغرافًا.

انتزعت «أنطونيا» المفتاح الضخم الصدئ من المسمار المُعلَّق به، وذهبت لتفتح البوابة.

قالت أمي:

ـ أسرعي، أسرعي، قد يكون تلغرافًا.

قالت «أنطونيا» وهي تعيد المفتاح على المسمار:

ـ إنه السيد الساكن في «كازا توندا». أدخلته إلى الصالون.

قالت أمي:

ـ من «كازا توندا»؟ أي سيد؟

ذهبتُ إلى الصالون، وجاءت أمي خلفي. كان «تومازينو» يقف هناك، بمعطفه القصير المفتوح، وفي يده كيس صغير.

قال:

ـ خميرة البيرة، ظلت في جيبي.

قالت أمي:

ـ آه، الخميرة! لم تكن تحتاج إلى أن تزعج نفسك بشيء بسيط كهذا يا «تومازينو»، في هذه الساعة.

قالت:

ـ تفضل اجلس.

ظهر أبي أمام الباب، بالغليون.

قال:

ـ آه، عِمت مساءً عزيزي «تومازينو».

أبي يحب «تومازينو» كثيرًا، لأنه كان يحب جدًّا «بالوتا المُسن»، وكانا قد خدما معًا في الحرب العالمية الأولى على هضبة «كارست».

قالت أمي:

ـ «تومازينو»، هل يمكن أن نقدِّم لك شيئًا؟

قالت:

ـ إذن تقابلتما اليوم في المدينة، واشتريتما المطلوب معًا؟

ثم جلستْ على الأريكة، وضبطت من وضع الياقة المطرَّزة على صدرها وقالت:

ـ وكيف حال عمتك «مانيا ماريا»؟ لا بد أن أذهب لأزورها، في أحد تلك الأيام، إذ وعدتْ بتعليمي الغرزة الصغيرة. إنها تصنع الحصائر وأغطية الفراش بالغرز الصغيرة.

ثم قالت، وهي تتقمص «مانيا ماريا»:

ـ إنها مجتهدة جدًّا، رائعة، كم هي رائعة!

قلت:

ـ «تومازينو»، هل تناولت العشاء؟

قال هو:

ـ نعم، أكلت، وأنت؟

قالت أمي:

ـ تتحدثان بحميمية معًا. بالتأكيد، فأنتما يعرف كلاكما الآخَر منذ الطفولة.

قالت:

ـ كنتما تلعبان معًا وأنتما طفلان، في حديقة «مانيا ماريا»، وكان «باربا تومازو» يأخذكما لتتسلقا على تلك الصخور، خلف المنزل، هناك، حيث قتلوا بعد ذلك «نيبيا» المسكين.

قلت:

ـ أنا لا أتذكر هذا.

قال «تومازينو»:

ـ أنا أتذكر قليلًا، كنتِ ترتدين مريلات طويلة، كلها شرائط على شكل فراشات.

قلت:

ـ كانت مريلات بشعة.

قالت أمي:

ـ كانت جميلة جدًّا. كنت أطرِّزها أنا بنفسي. أنا أحب التطريز جدًّا، ولكنني لم أتعلم قَطُّ الغرزة الصغيرة.

قلت أنا:

ـ لعبنا معًا مرتين أو ثلاث مرات على الأكثر.

قالت أمي:

ـ ثم تباعدتما كلٌّ عن الآخر. يبدو ذلك شيئًا غريبًا: يعيش الناس على بُعد خطوتين، في بلدة صغيرة كهذه، ولا يرى أحد الآخر أبدًا. لم نعُد نذهب إلى أحد، نذهب أحيانًا فقط إلى عائلة «بوتيليا». كانت خميرة البيرة لهم. أنا لا أستخدمها أبدًا. أرتاح أكثر في استخدام «رغوة الملاك».

قال أبي:

ـ وماذا تكون «رغوة الملاك»؟ يا له من اسم رومانسي.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ «رغوة الملاك» ليست سوى خميرة البيرة أيضًا.

كانت قد دخلت وجلست في إحدى الزوايا، وعلى ركبتيها وضعت الكتب المجلَّدة باللون الأزرق.

قالت أمي:

ـ «رغوة الملاك» هي خميرة البيرة! هل أنتِ مجنونة!

قال «تومازينو»:

ـ هل الكتب التي أحضرناها جيدة؟

قالت أمي:

ـ آه، ذهبتما معًا أيضًا إلى مكتبة «سيليكتا»؟ إنها مكتبة جيدة، «سيليكتا»، يمكن العثور على كل شيء فيها، حتى الروايات الأجنبية. أختي تقرأ كثيرًا، أنا لا أستطيع، ليس لديَّ الوقت الكافي، فأنا مشغولة جدًّا في أمور المنزل، لا أجد دقيقة لأرتاح. ثم لديَّ كثير لأفكر فيه وأكثر لأقلق عليه، لا أستطيع أن أفقد نفسي في رواية. لديَّ أبناء بعيدون. هل تتذكر «جامبييرو» يا «تومازينو»؟

قال «تومازينو»:

ـ نعم، أتذكره، كيف حاله؟

كان جالسًا ويداه على ركبتيه، لطيفًا، خاضعًا كأنه قد تم ترويضه.

قالت أمي:

ـ حصل على منصب محترم في توباجو، في فنزويلا. كان يتمنى أن يعمل هنا، في المصنع، ولكنه لم يتفق مع المهندس «جواسكونيا»، لذلك رحل بعيدًا جدًّا.

المهندس «جواسكونيا» هو «البوريللو».

قالت أمي:

ـ لو كان أبوك لا يزال موجودًا، أو حتى «فينتشينزينو»

المسكين، لكان الموقف قد اختلف. مسكين «فينتشينزينو»، يا له من مصير تعس!

قالت:

ـ في الحياة كثير من الأشياء الحزينة. لماذا نقرأ الروايات؟ أليست الحياة نفسها رواية؟

قالت:

ـ هل تعلم أن ابنتي «تيريزيتا» تعيش في جنوب أفريقيا؟ هل تتذكرها؟ الآن أصبحت أمًّا. هناك أيضًا تحدث أشياء كثيرة، وأنا لا أشعر أبدًا بالاطمئنان. لديَّ ما يقلقني، أفكار كثيرة، أشعر بالألم دائمًا في رأسي، تمامًا هنا في الرقبة، في المخيخ. كنت أمس لدى الطبيب، أنا و«إلسا»، ووجد أنني منتهية، وأن ضغطي مرتفع جدًّا. ماهر هذا الطبيب الجديد، حريص جدًّا، ودقيق، ويكتب كل شيء، حتى إنني اليوم شعرت بأنني على ما يرام، فقط احتقان في الحلق، كأنني ابتلعت مسامير. لا بد وأنهما اللوزتان.

قال «تومازينو»:

ـ لديَّ في المنزل بعض أقراص «البنسلين» لعلاج آلام الحلق. يمكنني إحضارها لسيادتك غدًا، إذا كنتِ تقبلين.

قالت أمي:

ـ آه، بـ«البنسلين»؟ أنا ضد «البنسلين» بعض الشيء، لا أخفيك القول، ربما لأنني أعرف أنه مصنوع من البكتيريا. إنهم يعالجون الناس حاليًّا بالبكتيريا! يا له من شيء غريب!

قالت:

ـ لماذا لا تأتي غدًا لتتناول العشاء معنا؟ أحضر لي تلك الأقراص، سأجرِّبها، ربما حسَّنَت حالتي.

قالت:

ـ وكيف حال المهندس «جواسكونيا»؟
و«رافايلَّا»؟ و«بيبي»؟
«بيبي» أيضًا كان يعاني ألمًا في الحلق، أليس كذلك؟
وهكذا إذن أخذوه إلى البحر؟
مَن يدري، ربما أفاد البحر حالتي أيضًا.
ولكن كيف يمكنني أن أترك المنزل، لأذهب إلى البحر؟
ثم إنه ليس لدينا كثير من الأموال لنصرفها.
وهل يفيد البحر في حالة الضغط المرتفع؟

*

انتزعتُ المفتاح عن المسمار، وذهبتُ مع «تومازينو» إلى البوابة.

قال:

ـ هل تصرفت بطريقة جيدة؟

ـ جيدة، نعم، كنت مُسلّيًا.

ـ كنت مُسلّيًا؟ ألستِ مسرورة؟

قلت:

ـ لماذا أتيت؟

قال:

ـ لكي أحضر خميرة البيرة.

قال:

ـ لقد أتيت لأجرب.

ـ لتُجرب؟

ـ نعم لأجرب.

ـ لتجرب أن تراني في إطاري الخاص؟

ـ نعم.

ـ وما الانطباع الذي تركته لديكَ في إطاري؟

ـ وأنا؟ ما الانطباع الذي تركته لديكِ وأنا في إطارك؟

تساءلتْ أمي، وهي على السُّلَّم، إذا كان لا بد أن تدعو أيضًا «جيجي سارتوريو» مع «تومازينو» إلى العشاء.

قالت:

ـ ربما لا، بسبب إصابة ذراعه. ما الانطباع الذي يمكن أن يتركه ضيف بيد مشدودة على لوح، على مائدة العشاء؟ ولكن كيف قلت لي إنك قد نسيت الخميرة؟ لم تنسَيها، لقد ابتعتِها، وأعطيتِها لـ«تومازينو».

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ يا له من شاب وسيم.

قالت أمي:

ـ وسيم بالفعل. كان هو الأجمل دائمًا من بين أبناء «بالوتا».

قالت:

ـ ولكن كيف خطر لكِ أن تأخذيه معكِ إلى «سيليكتا»؟

قالت:

ـ وكيف خطر بباله أن يأتي إلى هنا في هذا الوقت المتأخر، من أجل بعض الخميرة؟

وأيضًا جاء عليَّ الدور لأدعوه إلى العشاء. سأطبخ له «سوفليه» السبانخ.

و«السابايوني». يمكنني أن أعد «السابايوني» أيضًا، إذا لم أدعُ «جيجي سارتوريو»، لأنه تناوله أمس مساءً.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ بيض كثير جدًّا، بيض في «السوفليه»، وبيض في «السابايوني». من الأفضل التحلية بالتارت.

ـ وفي التارت، ألا يوجد بيض؟

* *

قالت أمي:

ـ «تومازينو»، تناول مزيدًا من «السوفليه». إنه خفيف جدًّا.

قالت:

ـ كنت أود أن أدعو «جيجي سارتوريو» أيضًا، ولكن لم أكن أعرف إذا كان ذلك سيسعدك. ثم إنه الآن ضخم جدًّا، بذراعه هذه. يخشى المرء دائمًا أن يصطدم بشيء ما.

قالت:

ـ غريب بعض الشيء، «جيجي سارتوريو» هذا. يقولون إنه مدمن مورفين. مَن يدري إذا كان ذلك حقيقيًّا. أنت يا «تومازينو» ماذا تعتقد؟

قالت أمي أيضًا:

ـ يقولون إن له أذواقًا غريبة. يذهب كثيرًا إلى الخارج، قد يكون اكتسب طباعًا غريبة، ربما، مَن يدري؟ أبوه الجنرال رجل محترم جدًّا.

يقولون إن له أذواقًا غريبة، أنا لا أعرف. هل تعرفه جيدًا يا «تومازينو»؟

ـ الجنرال «سارتوريو»؟

ـ لا، بل ابنه. ليس للجنرال، في الحقيقة، أي أذواق غريبة. إنه شخص نظامي.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ يقولون في البلدة إن «جيجي سارتوريو» خطيب «جوليانا بوتيليا».

قالت أمي:

ـ لتتخيلي هذا! إنهما فقط صديقان جيدان، رفيقان، فهو على سبيل المثال، صباح أمس، أتى ليصحبها ليذهبا معًا لمشاهدة مباريات التنس. هل تلعب التنس يا «تومازينو»؟

قال «تومازينو»:

ـ لا، أنا لا أمارس أي رياضة.

قالت أمي:

ـ هذا شيء سيِّئ، ولكنك طويل، وجسمك جسم شخص رياضي. إن ابنتنا «إلسا»، هنا، كانت تتردد في ما مضى على نادي التنس. كانت تلعب جيدًا، كانوا يقولون إن ضربتها قوية، تصل إلى بعيد. ثم توقفت عن ذلك. لا أحد يدري لماذا.

قالت:

ـ وابني «جامبييرو»، عندما كان هنا كان شغوفًا بالرياضة. الآن في فينزويلا، بدأ يميل إلى الكسل، لا بد وأنه الجو. في الواقع، عندما أتى في الإجازة رأيت كيف فقد لونه الجميل.

قالت:

ـ وأنت أيضًا لونك ليس جيدًا على الإطلاق يا «تومازينو». إن لونك يميل دائمًا إلى الشحوب. ربما السبب حياتك التي تميل فيها إلى الجلوس كثيرًا.

قال «تومازينو»:

ـ إن هذا هو لون بشرتي الطبيعي.

ـ لا، لم يكن لونك هو هذا اللون. وأنت صغير كنت أبيض وأحمر مثل التفاحة.

قال «تومازينو»:

ـ إذن إحدى «صغيرات بوتيليا» قد خُطبت.

قالت أمي:

ـ آه، أنت أيضًا تدعوهن «صغيرات بوتيليا»؟ كنت أعتقد أننا نحن فقط مَن يُطلق عليهن هذا اللقب، هنا في المنزل. ولكنهن، للأسف، لم يعدن صغيرات.

قال أبي:

ـ ولِمَ للأسف؟

قالت أمي:

ـ للأسف، لأنهن لم يتزوجن بعد. بالنسبة إلى المرأة الزواج هو المصير الأجمل، الزواج السعيد. ولا أتحدث عن الزواج التعِس، فمن دونه الحياة أفضل، مَن يدري؟ أنت يا «تومازينو»، لقد عشت تجربة زواج تعس في عائلتك، زواج المسكين «فينتشينزينو».

قالت:

ـ ربما من أجل هذا لم تتزوج أنت أيضًا حتى الآن. ترغب

في أن تفكر كثيرًا قبلها. معك حق. على كلٍّ أنت ما زلت صغيرًا جدًّا، بالنسبة إلى سن الزواج للرجال.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ أنا لم أتزوج، وأنا سعيدة هكذا.

قالت أمي:

ـ أنتِ، لم تكوني مخلوقة للزواج. تحبين كثيرًا أن تفعلي ما يريحك.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ ما يريحني! ومتى فعلت أنا ما يريحني؟

قالت أمي:

ـ ولكن لا، لم تُخطب «جوليانا بوتيليا». إنهما يخرجان معًا دائمًا منذ سنوات، هي و«جيجي سارتوريو». لو كانا قد خُطبا، لكنت أنا أول من علم، فأنا مع أمها، «نيتا بوتيليا»، منذ الصباح حتى المساء.

قال أبي:

ـ وكيف حال دراستك يا عزيزي «تومازينو»؟

أخذ «تومازينو» يتحدث، وهو يلف شعره حول أصابعه، عن البرمجة الخطية.

ثم انتقلنا لتناول القهوة في الصالون.

قالت أمي:

ـ هل أنت تتبع الأفكار الاشتراكية يا «تومازينو»؟ تلك البرمجة الخطية، إذا كنتُ قد أدركتها جيدًا، هل هي شيء اشتراكي؟

لم أستطِع أن أسمح لأمي بأن تتخذ من البرمجة الخطية موضوعًا للحديث.

قلت:

ـ ولكن لا دخل للاشتراكية في أي شيء. لا فائدة من الرغبة في التحدث عمَّا لا نفهم فيه.

قالت أمي:

ـ لقد فهمت كل شيء فهمًا جيدًا. إن أخي المسكين، لا أعرف إذا كنت قد سمعت عنه يا «تومازينو»، كان هو أيضًا يهتم بهذه الأشياء. لقد توفِّي منذ بضعة أعوام، كان اسمه «شيزاري ماديرنا».

قال أبي:

ـ أخوك كان موظفًا في السكك الحديدية. كيف يمكن أن يكون له أي دخل في ما يتحدث عنه «تومازينو»؟

قالت أمي:

ـ ولكنه كان رجل سياسة. كان قد ترشح في البرلمان. كان اشتراكيًّا، اشتراكيًّا كبيرًا، مثل أبيك يا «تومازينو».

قال أبي:

ـ إلا أنه بعد ذلك انضم إلى الفاشيين.

ـ ولكن ما أهمية هذا؟ كان لا بد له من أن يفعل، وإلا فقد وظيفته. على كل حال، كان رجل سياسة، وكان يهتم بالمشكلات الاشتراكية، تمامًا كما يفعل «تومازينو» الآن. أليس كذلك يا «أوتافيا»؟

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ أخونا المسكين كان مجرد موظف في السكك الحديدية. كان وهو شاب يهتم، قليلًا، بالسياسة، ولكن بلا أي نجاح يُذكر. لم يرشح نفسه قَطُّ في البرلمان. أنت يا «ماتيلدا» اختلط عليك الأمر بينه وبين ابن العم «إرنستو». إن مَن رشح نفسه للبرلمان كان ابن عمنا «إرنستو»، ولكن أخانا لم يفعل هذا قَطُّ. كان فقط رجلًا محترمًا. أجل، انضم إلى الفاشيين، ولكنه لم يرتدِ القميص الأسود قَطُّ. كان لديه واحد ولكنه لم يضعه قَطُّ.

قال أبي:

ـ وماذا كان سيهمه، وإن كان سيفقد وظيفته؟ كانت زوجته ثرية، كان سيعيش على ما يرام في كل الأحوال.

وقال وهو يلتفت إلى «تومازينو»:

ـ كانت زوجته من عائلة «تيرنزي»، من «تشينيانو». كان لديهم كروم وغابات ومراعٍ، ثروة كبيرة. لم يكن لديهما أولاد، وعند وفاتهما تركا كلَّ شيء للكهنة.

قالت أمي:

ـ قامت هي بذلك، الزوجة. أما هو فلم يكن يطيق هؤلاء الكهنة، ولكنه مات قبل أن تموت هي.

قال «تومازينو»:

ـ من عائلة «تيرنزي» في «تشينيانو». أقارب عائلة «تيرنزي» هنا؟

ـ صلة قرابة بعيدة.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ أما ابن العم «إرنستو»، فلقد ضربه الفاشيون، ووضعوه في السجن أيضًا. مات فقيرًا.

قالت أمي:

ـ وابنة ابن عمي هذا، كان صوتها جميلًا جدًّا. ذهبت إلى

أمريكا، وكانت تغني في أكبر المسارح هناك. ولكن فجأة، اختفى صوتها. الآن لم تعُد قادرة حتى على غناء نشيد «جاريبالدي».

قالت خالتي «أوتافيا»:

ـ حدث هذا بسبب حريق، نشب هناك في أمريكا. كان الفندق يحترق في ليلة من الليالي، وكان لا بد وأن تقفز من النافذة، وأخذ الجميع يصرخون لها بأن تقفز، وكانت هي تقف هناك على حافة النافذة، ولم تقفز. ثم قفزت؛ إذ كانوا قد وضعوا هناك في الأسفل شبكة الأمان. قفزت، ولكن اختفى صوتها.

قالت أمي:

ـ لا بد أنه الفزع ومعه الدخان.

قالت الخالة «أوتافيا»:

ـ ولكنها الآن قد عوَّضَت نفسها وتزوجت بطبيب أسنان.

قالت أمي:

ـ لأنها بعد أن فقدت صوتها، كانت قد أصبحت كالمجنونة من الألم، وأدخلوها المستشفى. وهناك كان يمر عليها، مرةً كل أسبوع، طبيبُ أسنان، ليفحص أسنان المرضى. وهكذا وقع في حبها. كان فمها رائع الجمال.

قال أبي:

ـ وهكذا استمعنا إلى القصة الكاملة لابنة ابن العم «إرنستو».

قالت أمي:

ـ «آدا»، ألا تتذكر «آدا»؟ لم نرها منذ عدة أعوام، ولكنها كانت امرأة طويلة القامة، وجميلة.

قال أبي:

ـ لقد قصصتما عليَّ هذه القصة ملايين المرات. ولكن لماذا تعتقدان أن «تومازينو» سيهتم بقصص أشخاص لم يرَهم ولن يراهم أبدًا؟

قالت أمي:

ـ إننا فقط نحاول أن نتجاذب أطراف الحديث. هل تريدنا أن نقضي الأمسية كلها وكل منا ينظر في عينَي الآخر؟ الناس تحكي وتتحدث. هناك مَن يقول شيئًا، وآخر يقول شيئًا آخر.

قالت:

ـ «تومازينو»، هل تريد أن أحوك لك ذلك الزر المتدلي من الكُم؟ وإلا فستفقده.

قالت:

ـ هذا المعطف قد ذبل قليلًا. لماذا لا تطلب من «جيجي سارتوريو» أن يُحضر لك من لندن، في المرة القادمة التي يذهب فيها إليها، معطف «مونتجمري»؟ معاطف عملية جدًّا.

قالت:

ـ أرجو أن لا تكون قد شعرت بالحرج أنني قلت هذا. ألست أنا أُمًّا؟

* *

قالت أمي لأبي عندما جلسا وحدهما في حجرتهما، وكنت أنا خلف الحائط أتنصَّت:

ـ مهذَّب جدًّا.

قالت أمي:

ـ واضح أن مدرسة «ساليتشي» الداخلية تلك، مدرسة جيدة.

قالت:

ـ ربما هو ليس غريب الأطوار جدًّا في نهاية الأمر، قد تكون تصرفات صغيرة غريبة، مجرد طيش شباب.

قالت:

ـ وهو وسيم جدًّا، له أنف السيدة «تشيتشيليا»، التي كان لها أنف جميل، وفم «مانيا ماريا».

قال أبي:

ـ لا أرى أي أثر للسيدة «مانيا ماريا» على «تومازينو».

قالت أمي:

ـ لأنك أنت يا «إينياتزيو» لا تفهم شيئًا في التشابه العائلي.

* * *

قلت:

ـ إذن، ما الانطباع الذي تركته لديكِ في إطاري؟

كنا هناك، في غرفة شارع «جوريتسيا»، وكنت أنا مستلقية على الفراش و«تومازينو» جالسًا أمام المائدة، واضعًا مرفقيه عليها، وهو يدخن.

قلت:

ـ انطباع سيئ، أليس كذلك؟

قال:

ـ وأنا؟ ما الانطباع الذي تركته لديك، وأنا في إطارك؟

قلت:

ـ أنت دائمًا في إطاري. لا تخرج منه أبدًا.

قلت:

ـ أنت دائمًا هناك معي، بين أشيائي، أتحدث إليك، وكل شيء يستمر، مثلما هي الحال ونحن هنا معًا. أنت على العكس، تنفصل عني. تعود إلى هناك، إلى «كازا توندا»، ولا أكون أنا هناك. من حين إلى آخر، ولكن فقط من حين إلى آخر، تنظر إلى أسفل حيث يوجد منزلنا. ولكن فقط من حين إلى آخر، أو عن غير قصد.

قلت:

ـ أنا لا أفصلك عني أبدًا. أنا أحتفظ بك هناك، بين أشيائي. لو لم أفعل ذلك، لما استطعت أحيانًا أن أتحمل إطاري.

قال هو:

ـ لكنكِ كنتِ تتحملينه، عندما لم يكن لي أنا وجود عندكِ بعدُ.

قلت:

ـ أجل، كنت أتحمله. كان ثقيلًا عليَّ، ولكنني كنت أتحمله. ولكن لم أكن أعرف آنذاك أن الحياة يمكن أن

تكون فيها إيقاعات أخرى. كنت أتخيل ذلك، بشكل غامض، ولكن لم أكن أعرفه.

قلت:

ـ لم أكن أعرف أن الحياة يمكنها أن تجري على وقع دويِّ الطبول.

قلت:

ـ بالنسبة إليك، ليس الأمر هكذا. بالنسبة إليك الحياة، بعد أن ظهرت أنا فيها، احتفظت بخطوتها المعتادة، بلا أي دويٍّ.

قال هو:

ـ تدوِّي قليلًا، تدوِّي قليلًا أيضًا بالنسبة إليَّ. ربما ليست بقوة شديدة، ولكنها تدوِّي.

قال:

ـ ولكنني كنت أتمنَّى لو كنت قد ذهبت بعيدًا، في أي مكان في الخارج، وتعرفت إليكِ بمحض الصدفة، في شارع ما، فتاة لم أرَها قَطُّ من قبل. كنت أتمنَّى أن لا أعرف أي شيء عنكِ، ولا عن أهلك، وأن لا أقابلهم أبدًا.

قلت أنا:

ـ ولكن ما حدث أننا كبرنا في البلدة نفسها، ولعبنا معًا ونحن أطفال، في «لي بيتري». بالنسبة إليَّ، لا يتسبب هذا في أي إزعاج. شيء لا يهمني على الإطلاق.

قلت:

ـ لا يهمني، بل ويرقِّق قلبي قليلًا. ومنذ أن أصبح لك وجود في حياتي، بلدتنا تلك أصبحت كأنها أرض غريبة، متسعة الأركان جدًّا، مليئة كلها بأشياء لا يمكن توقُّعها، درامية، مثيرة للانفعال، يمكنها أن تحدث في أي لحظة. على سبيل المثال، يمكنني أن أذهب إلى الميدان لألقي برسالة في صندوق البريد، وأرى سيارتك واقفة أمام «الكونكورديا»، أو أرى أختيك، أو أرى «مانيا ماريا».

قال:

ـ لا أفهم، هل يبدو لكِ شيئًا مثيرًا للانفعال رؤية «مانيا ماريا»؟

قلت:

ـ عندما أرى «مانيا ماريا» يبدأ قلبي يدق بسرعة.

قال:

ـ لا أفهم! أنا عندما أقابل أباكِ في ممر المصنع، لا أشعر على الإطلاق بأن قلبي يدق.

قال:

ـ أشعر بالاحترام الشديد نحو والدك، ولكن، أقسم لكِ، لا يدق قلبي.

قلت:

ـ لأنك لا تحبني. هذا هو التفسير الوحيد.

قلت:

ـ منذ أن ظهرتُ في حياتك، لم يتغير شيء.

قلت:

ـ لذلك تتخيل لو كنتَ قابلتني في الخارج، ولو كان كل شيء قد حدث بطريقة أخرى. على العكس، بالنسبة إليَّ كل شيء على ما يرام، تمامًا كما حدث، بأننا لعبنا معًا ونحن صغار، بمرايلنا القبيحة.

قال:

ـ كنتِ أنتِ مَن يرتدي المريلة القبيحة. أنا لم أرتدِ مريلة قَطُّ في حياتي.

قلت:

ـ تقول إنك لست رومانسيًّا. ليس هذا حقيقيًّا، إنك بالعكس رومانسي؛ ترغب في نساء غامضات، ومدن مجهولة، بلا عائلات أو أقارب. إن هذا معناه أنك شخص رومانسي.

قال:

ـ لديَّ كثير من الأقارب بالفعل، قائمة طويلة.

قال:

ـ لديَّ حشد من الأقارب، طويل مثل الثعبان. لا أرغب في مزيد، يكفيني ما لديَّ.

قلت:

ـ عندما أتيت إلى منزلي، في ذلك المساء، ومعك الخميرة، قلت إنك أردتَ أن تُجرِّب. ماذا أردتَ أن تُجرب؟

قلت:

ـ هل أردت أن تُجرب وتصبح خطيبي؟ وهل رأيت أنك لن تنجح، وأن هذا لا يعجبك؟

قال:

ـ لقد رأيت أن الأمر سيكون صعبًا عليَّ بعض الشيء.

قلت:

ـ وهكذا لن يكون الحضور إلى هنا جميلًا. الآن وقد التقينا هناك، في منزلي، مع أبوَيَّ، في البداية في الصالون، ثم في غرفة الطعام، ثم من جديد في الصالون. الآن وقد شربتَ القهوة في تلك الفناجين المزينة بالزهور، الآن وقد استمعتَ إلى قصص ابن العم «إرنستو»، يبدو لي أنه لن يعجبني بعد الآن الوجود هنا معك، في هذه الحجرة، ولا حتى تبديل الكتب معك في مكتبة «سيليكتا»، ولا أن أتجول معك في الحديقة، لأنني طوال الوقت سأفكر في ذلك، في أنك أردت أن تجرب أن تكون خطيبي ولم تنجح، ولم يعجبك. سأفكر دائمًا بأنني أناسبك، هكذا للصحبة فقط، ولكن لا أناسبك كزوجة.

قال هو:

ـ لقد قلت دائمًا إنني لا أريد أن أتزوجك.

قلت:

ـ هذا حقيقي، لطالما قلت هذا. وكنت أنا أقول لنفسي: «صبرًا». كنت أعاني، ولكنني أقول: «صبرًا». كنت أقول لنفسي: «هذا أفضل من لا شيء». ولكن الآن وقد جربتَ، أردت أن ترى إن كنتَ، ربما، مخطئًا. ورأيت أنك لم تكن مخطئًا، وأنك بالفعل لا تستطيع.

وأنا الآن، أمام هذا، لن أستطيع أن أقول: «صبرًا». بالنسبة إليَّ أصبح هذا ألَمًا لا أستطيع تحمله.

قلت:

ـ لقد شعرت بالسعادة الشديدة عندما جئت إلى منزلي، في ذلك المساء، بتلك الخميرة. وسعدت كثيرًا وأنا أراك هناك، بنفسك، في صالون منزلنا، حيث كنت أتخيلك دائمًا. ولكن ما حدث الآن دمَّر كل شيء. الآن لا يمكننا حتى أن نبقى هنا. لقد كرهت شارع «جوريتسيا» هذا، وهذه الحجرة.

وبدأت أبكي. قلت:

ـ ولكن لماذا دمَّرنا كل شيء؟

قال هو:

ـ آخ! لا، على الأقل لا تبكي! أكره رؤية امرأة تبكي!

ولكنني كنت أبكي، وأقول أنا أيضًا مثل «كاتي»:

ـ ولكن لماذا دمَّرنا كل شيء؟

* * *

في مساء اليوم التالي، أتى «تومازينو» ليتحدث مع أبي. كان قد ارتدى بدلة داكنة. كان قد طلب النصح من «بيتا»، وقالت له «بيتا» إن البدلة الداكنة شيء أساسي.

فتح أبي، بهذه المناسبة، زجاجة نبيذ «الموسكاتو» من كَرْمِنا، عمرها تسعة أعوام.

تأثرت أمي جدًّا، حتى إنها ظلت مستيقظة طوال الليل. وأيقظت أبي أيضًا، وقالت له:

ـ هل توقعت هذا؟

وقالت:

ـ أنا، عندما رأيته أمامي في ذلك المساء، وهو ممسك بذلك الكيس الصغير، توقعت هذا تقريبًا.

ثم قالت:

ـ ولكن ممتلكاته، كم تُرى تساوي؟ لا بد أنه مبلغ كبير! أليس كذلك؟

قال أبي وهو يغالب النعاس:

ـ لا أعلم.

ـ لا تعلم؟ أنت لا تعلم، وأنت مُحرِّر العقود؟ مُحرِّر عقود ماهر! من إذن يعرف هذا؟

في الصباح الباكر أسرعت لتقص كل شيء على السيدة «بوتيليا». ولكن السيدة «بوتيليا» كانت تعرف بالفعل ما حدث لأن «بيتا»، التي أتت في الفجر لتحضر لها الخضراوات، كانت قد أخبرتها.

بل وكانت تعرف أيضًا من قبل، أن هناك شيئًا ما. كانت تعرف منذ فترة.

كانت ابنتها «ماريولينا» قد قالت لها إنها رأتنا أنا و«تومازينو» في قهوة، يمسك كل منا بيد الآخر.

قالت أمي:

ـ مستحيل! تخيلي أنتِ بنفسك إذا كانت «إلسا» يمكنها أن تترك يدها لرجل يمسكها في مكان عام. مَن يدري ماذا رأت ابنتك؟

وكانت مُحبَطة بعض الشيء، إذ إنها لم تُفاجئ السيدة «بوتيليا»، وكانت هي عطشى لأن تتسبب في الدهشة، وقد قضت الليل كله تتذوق مسبقًا متعة رؤية الدهشة في عينَي صديقتها القديمة، اللتين تعلوهما العدستان الضخمتان، ويكسوهما دائمًا شرار أخضر، سواء من عدم التصديق أو من الخبث.

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ نحن الأمهات دائمًا آخر مَن يعلم بعض الأشياء.

وقالت في السر لأمي إن ابنتها «جوليانا» أيضًا على وشك أن تتم خطبتها على «جيجي سارتوريو»، ولكنهما في انتظار أن يفك هو الجبيرة.

قالت أمي:

ـ وما دخل الجبيرة؟ لا يحتاج المرء إلى ذراعه في شيء ليخطب.

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ ولكن الطبيب أوصى بأن لا ينفعل، ولا يعرق، ولا يبذل أي مجهود.

قالت أمي:

ـ وأيُّ مجهود يبذل المرء ليخطب؟ لا داعي على الإطلاق لأي مجهود.

عادت إلى المنزل، وأسرعت لتخبر الخالة «أوتافيا» عن «جوليانا» و«جيجي».

ـ لا بد أنه يريد أن ينتظر حتى يشفى من إدمانه المورفين حتى يتزوج، لا بد أن هذا هو السبب الحقيقي!

*

بدأ «تومازينو» يأتي إلى منزلنا كل مساء. في الشتاء نزل كثير من الثلج، وكان يأتي إلينا وشعره يغطِّيه الثلج، وأمي تقول:

ـ ولكن كيف يمكنك أن تسير بلا قبعة؟

أحيانًا، كان يلعب الورق مع أبي، وأحيانًا كنا أنا وهو نجلس في الصالون، مع الخالة «أوتافيا»، التي كانت تقرأ الروايات.

كانت أمي تقول:

ـ سأترك هنا الخالة، لأنه من المعتاد أن يجلس أحدهم دائمًا مع الخطيبين.

كانت تتحدث عن الخالة كأنها تتحدث عن مقعد. وفي واقع الأمر كانت الخالة تتصرف كأنها مقعد، تجلس في صمت ولا تتحرك أبدًا. لم تكن ترفع عينيها عن الكتاب.

ولكنها كانت هناك، وكنا لا نجد أي شيء يقوله أحدنا للآخر بسبب وجود ذلك الرأس ذي الضفائر الصوفية أسفل المصباح.

كان يلف شعره حول أصابعه. وأنا أغزل الصوف.

كان يبدو لي من المستحيل أنه كانت هناك، في شارع «جوريتسيا»، حجرة بها فرن صغير خلف ستار، نُعد عليه القهوة أحيانًا.

كنا ما زلنا نذهب كثيرًا إلى المدينة. ولكن لم نعُد نذهب إلى شارع «جوريتسيا»، بل كنا نتجنب المرور من ذلك الشارع.

لم أكن حتى أعلم إن كان لا يزال يحتفظ بتلك الحجرة، ويدفع إيجارها.

كنا نتجنب بعض المواضيع. نادرًا ما تحدثنا عن الفترة السابقة، عندما كنا نتقابل في شارع «جوريتسيا». كنا نتظاهر بأن ذلك الزمن لم يكن له أي وجود.

كنا نذهب إلى معارض الأثاث، والمنجدين، لنرضي أمي.

وكانت أمي تسألنا عند عودتنا:

ـ هل طلبتما البوفيه الجانبي؟ هل ذهبتما لرؤية تلك الأريكة؟

ثم قررت أمي أن تأتي معنا في كل مرة نذهب فيها إلى المدينة. كانت تسير في المدينة بخطوتها البطيئة جدًّا، متوقفة أمام كل نوافذ العرض، وأصبحت الساعات لا نهاية لها.

كانت أمي تريد أن تملأ «كازا توندا» باللوحات والبُسُط. كانت ترغب في أن تكسوها من أعلاها إلى أسفلها، وأن لا تترك أي سنتيمتر مربَّع فيها عاريًا.

وفي الليل، عندما كانت تجد صعوبة في أن تنام، كانت تقفز في خيالها، تلعب دور الشيطان في «كازا توندا»، تُسقِط الحوائط، وتنزع الأرضيات، تقيم الأعِمدة والأقواس، وتحول الشرفات إلى حمامات، والحمامات إلى شرفات.

بين اليقظة والمنام، كانت تطرد أيضًا «بيتا». كانت «بيتا» قد قالت للسيدة «بوتيليا» إن «تومازينو» يستحق زوجة أكثر جمالًا وثراءً منّي، وعلى الفور نقلت السيدة «بوتيليا» ما قالته إلى أمي. وهكذا كانت أمي تطرد «بيتا»، وهي تقدم لنفسها مشهدًا تفاجئ فيه «بيتا» في أثناء اقترافها سرقة. كانت لديها بعض الكلمات المُرَّة والمُزدرِيَة. كانت ترغب في أن تعيِّن في مكانها المربية المُسنة، تلك التي تعمل لدى «جيمينا»، بأن تَعِدَها بزيادة كبيرة في مرتَّبها. وكانت تفعل هذا أيضًا لتُغضِب «جيمينا»، التي كانت ثقيلة على قلبها.

كانت «جيمينا» قد دعتنا لتناول الغداء، أنا و«تومازينو»، وقدمت لنا أرنبًا. كانت أمي ترى أن هذا يشير إلى عدم الاحترام الشديد، فالأرانب كانت تبدو لها طبقًا لم يتم اختياره بعناية، وغير مناسب على الإطلاق للاحتفال بخطوبة.

وفي إحدى المرات ذهبت أمي لتزورها في «الكازيتَّا»، وبعد أن أتعبت قدميها في الصعود إلى هناك، أثقلت «جيمينا» عليها بأربع تذاكر لمعرض الأشغال اليدوية، ومفرش قبيح جدًّا مزين بأكاليل الزهور، ثمنه ثمانمائة ليرة.

وكانت أمي أيضًا، في أحلامها، تطرد «البوريللو» من المصنع، لا أعرف بأي طريقة، وتضع «تومازينو» في

مكانه. كانت تغير كل نظام المصنع، وترفع مرتَّبات كل العمال. ولكنها كانت تقتطع من مرتب «بورزاجي»، لأنها لم تكن تتحمله، إذ تشاجرت من قبل مع زوجته، في متجر ما، في إحدى المرات، لأن السيدة «بورزاجي» رغبت في أن تُتم خدمتها أولًا.

بل إن أمي أيضًا قد نسيت قليلًا أمراضها، بسبب الانفعال، وعندما تذكرت، وضعت اللوم على «جيمينا» في النزلة التي ألمت برئتيها عندما ذهبت إلى «الكازيتَّا»، وعرقت في أثناء صعودها، وكانت الرياح شديدة.

كانت تتم دعوتنا أحيانًا إلى العشاء في «لي بيتري»، أنا و«تومازينو». كان «باربا تومازو» يصرخ وهو يشير إليَّ بإصبعه:

ـ مَن هي؟ مَن هي؟

وكانت «مانيا ماريا» تُقبِّلني قُبلات رنانة على خديَّ وهي تقول:

ـ رائعة! رائعة!

في طريق العودة كان «تومازينو» يسألني:

ـ هل ما زلتِ تشعرين بالانفعال عندما ترين «مانيا ماريا»؟

وأنا أقول له:

ـ أقل بكثير.

يقول:

ـ إذن، أصبحتِ مثلي إذ لم أكن أنفعل أبدًا عندما أرى أهل بيتك.

أقول:

ـ نعم، ربما أصبحت مثلك أكثر.

وهو يسألني:

ـ ولكنكِ سعيدة؟

وأنا أقول:

ـ أجل.

وجرت الأيام، بإيقاع يزداد دائمًا في سرعته، مندفع وعميق، وكانت حياتي كلها تتقدم على وقع دويِّ الطبول. كانت الطبول تدوِّي عاليًا جدًّا بداخلي إلى حد أنني لم أعد أسمع شيئًا آخَر.

ذهبنا أنا و«تومازينو» لنتجول في الحقول. كانت الثلوج قد بدأت تذوب، ولكن بقيت آثار لها هنا وهناك، تلوِّنها أشعة الشمس باللون الوردي.

قال:

ـ هنا أجمل بكثير من تلك الحديقة، لقد مشينا كثيرًا في تلك الحديقة، وفي شوارع المدينة، ولكن هنا أجمل. أليس كذلك؟

قال:

ـ لكنكِ لستِ سعيدة. أليس صحيحًا أنكِ لستِ سعيدة جدًّا؟

وقلت أنا:

ـ أجل، هذا صحيح.

ولكنني لم أكن أعرف كيف أشرح السبب.

وقال هو:

ـ ولكن ماذا تريدين إذن؟

قال:

ـ أردتِ أن أتزوجك، وها أنا أتزوجك. ماذا تريدين أكثر؟

قلت:

ـ لا أعلم.

قال:

ـ كم أنتِ معقَّدة! كم هن معقَّدات ومُتعِبات، كل النساء!

قال:

ـ وفي المنزل تنتظرنا إحدى تلك الأمسيات الصغيرة في صالون منزلك الصغير مع الخالة «أوتافيا»؟

قال:

ـ وغدًا لا بد من الذهاب إلى المدينة، مع أمك، لنختار الأرائك؟

قال:

ـ ولكن لو كنتِ أنتِ على الأقل سعيدة! ولكنكِ لستِ سعيدة، وأنا لا أفهم ماذا تريدين!

* * *

كان قد تم تحديد ميعاد الزواج في شهر يوليو.

نزلنا في عصر أحد الأيام إلى المدينة، فقط نحن الاثنان، من دون أمي التي مكثت في المنزل لتقوم ببعض التعديلات في شال إسباني كبير من الدانتيل الأسود، ترغب في أن تصنع منه فستانًا للفرح.

وكان أيضًا يوم عيد «القربان المقدس»، وكل المحلات مُغلَقة، ولم يكُن لدينا شيء خاص لنفعله. فقط كان لا بد أن

يمر «تومازينو» بالترزي، ليقيس مرة أخرى البدلة الجديدة التي طلبها، ترزي أعطاه «البوريللو» عنوانه.

وهكذا دخلنا عند الترزي، جلست أنا لأنتظر في صالون صغير. خرج بعد قليل «تومازينو» ليريني البدلة. كانت الجاكيت مليئة كلها بالغُرَز، والياقة لا تزال من قماش البطانة.

سار إلى الأمام وإلى الخلف أمام المرآة، وسار الترزي خلفه وفمه مليء بالدبابيس. كانت بدلة داكنة، سوف يرتديها في حفل الاستقبال في منزلنا، في الليلة السابقة للزواج.

ثم أخذنا نتجول في المدينة، وانتهى بنا الأمر في الحديقة. أخذ «تومازينو» يقلد الترزي، الذي كان ينطق كل حروف الألف في كلماته ياءً، لأنه من «باري».

قال:

ـ لا بد أن «البوريللو» كانت له عشيقة من «باري»، لأنه يعطيني دائمًا عناوين أشخاص من «باري»، فصاحب الجراج الذي أرسلني إليه أيضًا من «باري».

قال:

ـ ولكن مَن يدري كيف يعثر «البوريللو» على كل هؤلاء الأشخاص من «باري»؟

كنا قد ذهبنا في الليلة السابقة لنتعشى في «فيلّا رونديني».

قلت:

ـ هل تعتقد أن «رافايلّا» سعيدة مع «البوريللو»؟

قال:

ـ لا، أعتقد أنها في قمة التعاسة. ليس لها سوى «بيبي».

قال:

ـ وكيف تريدينها أن تكون سعيدة مع «البوريللو»؟

قلت:

ـ وأنت، لماذا لا تحاول أن تتحدث معها لتدفعها للكلام؟ لمساعدتها بعض الشيء؟

قال:

ـ لأنني لن أحقق أي شيء. على العكس، إذا تحدثت معها، ودفعتها للكلام، فربما جعلتها أكثر تعاسة. هل تعتقدين أننا في إمكاننا مساعدة شخص آخر؟

قال:

ـ لا يمكن عمل أي شيء للآخرين.

قال:

ـ إن «رافايلّا» بالتأكيد لا تفكر في أنها تعيسة. لقد دفنت كل أفكارها. هي تعيسة، ولكنها حريصة على أن لا تعترف بهذا حتى لنفسها، لتتمكن من الاستمرار في حياتها.

قال:

ـ بالإضافة إلى أننا جميعًا ينتهي بنا الأمر لنعيش هكذا.

قلت:

ـ وأنت أيضًا مع مرور الوقت، وبتقدُّم الزمن، سينتهي بك الأمر لأن تدفن أفكارك؟ هل تعتقد هذا؟

قال:

ـ بالتأكيد، بل إنني قد بدأت هذا بالفعل، بطريقة ما. وإلا فماذا يمكنني أن أفعل؟

قال:

ـ في هذه الشهور، دفنت كثيرًا من أفكاري. حفرت لها حفرة صغيرة.

قلت:

ـ ماذا تقصد؟ في هذه الشهور، في هذه الشهور الأخيرة، منذ أن خطبتني؟

قال:

ـ طبعًا، بالتأكيد. أنتِ أيضًا تعرفين ذلك. فنحن تقريبًا صامتان معًا حاليًّا في معظم الوقت، نجلس تقريبًا في صمت دائمًا، لأننا بدأنا في دفن أفكارنا جيدًا في العمق، في أعماق أعماقنا. ثم عندما نعاود الحديث، نتكلم فقط عن أشياء لا فائدة لها.

قال:

ـ في البداية، كنت أقول لكِ كل ما يدور في ذهني. الآن لم أعد أفعل هذا. الآن زالت عنِّي الرغبة في أن أقص عليكِ الأشياء. إن ما أفكر فيه، أقصه قليلًا على نفسي، ثم أدفنه. ثم رويدًا رويدًا، لا أقص أي شيء حتى على نفسي. أدفن كل شيء على الفور، أي فكرة عابرة، حتى قبل أن تتخذ شكلًا محددًا.

قلت:

ـ ولكن هذا يعني أنك تعيس.

قال:

ـ بلا شك، هذا يعني أنني تعيس جدًّا، ولكنه يحدث لكثير من الناس. في لحظة ما، لا يرغب المرء في مواجهة ما في أعماق نفسه. لأنه يشعر بالخوف، بأنِه إذا واجهه، فلن يجد بعد ذلك أي قدرة للاستمرار على قيد الحياة.

قلت:

ـ وأنت أخذت ترى في هذه الشهور الأخيرة هذا وهو يحدث لك، وتشاهد كيف كان يحدث؟ هل هذا ما كنت تفكِّر فيه بينما نحن نجلس هناك في الصالون الصغير في المساء مع الخالة «أوتافيا»؟ بأنك تشيح بوجهك عن أعماق نفسك؟

قال:

ـ بالتأكيد، كنت أفكر في هذا، هناك في الصالون الصغير، وإلا ففيمَ كنت أفكر؟

كنا نسير في الحديقة، أمام النهر. كان المكان مزدحمًا، ضوضاء وموسيقى، وكانوا قد أقاموا في الساحة الخضراء خلف «الكاستيللو» حديقة ملاهٍ.

كان الناس يسيرون بجوارنا، يسيرون، ويتجمعون أمام السور الحجري المطل على النهر، ويتسارعون على المنحدر المغطى بالعشب، وهم يصرخون ويصفرون، لأنه كان في ذلك اليوم سِباق للمراكب الشراعية.

كانت المراكب تقطع النهر واحدًا وراء آخَر، وأعلامها ترفرف. وكان كوخ المرسى، المُقام على ركائز، يكتظ بالناس، وعلى سقفه ترفرف أعلام صغيرة.

قال هو:

ـ في البداية، عندما كنا نلتقي هناك، في تلك الحجرة في شارع «جوريتسيا»، كانت لديَّ دائمًا الرغبة في أن أقص عليكِ ما أفكر فيه. كان شيئًا جميلًا، شعورًا بالحرية، والقدرة على التنفس بعمق... ثم خَبَت تمامًا تلك الرغبة في هذه الشهور.

قلت:

ـ وهل تعتقد أنها لن تعود إليك مرة أخرى؟

قال:

ـ لا، لا أعتقد. بعد أن خَبَت، كيف يمكن أن تعود؟

قال:

ـ في البداية، كنت أستطيع أن أختار أن أقابلك في ظهيرة أحد الأيام أو لا. ولكنَّ الآن، في هذه الشهور، شعرت أنني ليست لديَّ القدرة على الاختيار، وأنه لا بد أن آتي باستمرار إليك، هناك في المنزل، لأنني قد قمت باختيار واضح، مرة واحدة، إلى الأبد. لا بد أن أقوم بذلك الذي يتوقعه مني الآخرون، ذلك الذي تتوقعينه أنتِ أيضًا منِّي، مع الآخرين. وهكذا أخذت أدفن أفكاري. لم أعد أستطيع أن أنظر إلى أعماق نفسي، وحتى لا أستمع إلى صرخاتها، أشَحْت وجهي عنها، وابتعدت.

قلت:

ـ ولكن هذا بشع. لقد قلت لي أشياء بشعة.

قال:

ـ ألا تعلمين أنه شيء بشع؟ أنتِ أيضًا تعرفين ذلك. أنتِ تعرفين ذلك، ولكنكِ دفنتِ ذلك الوعي. أنتِ أيضًا فعلتِ ما يتوقع منكِ الجميع أن تفعليه، ذهبتِ مع أمك إلى النساجين، ومعارض الأثاث، ومحلات البياضات. وفي الوقت نفسه، في داخلك، كنتِ تستمعين إلى الصرخات الطويلة لأعماق نفسك، ولكنها تبتعد وتضعف دائمًا، تغوص أكثر تحت التراب.

قلت:

ـ ولكن إذن لماذا خُطبنا؟ ولماذا سنتزوج؟

قال:

ـ لنصبح مثل الجميع، ولنفعل ذلك الذي يتوقع منا الجميع أن نفعله.

قال:

ـ لم يكُن حبي لكِ حبًّا كبيرًا. أنتِ تعرفين ذلك جيدًا، ولقد قلته لكِ دائمًا، لم يكُن حبًّا عنيفًا ورومانسيًّا.

إلا أنه كان شيئًا، شيئًا حميميًّا ورقيقًا، وكان له عمقه وحريته. أنا وأنتِ، هناك في شارع «جوريتسيا»، بمفردنا، من دون خطط مستقبلية، بلا أي شيء، كنا سعيدَين، على طريقتنا الخاصة. كان لدينا هناك شيء ما، ربما شيء ضئيل، ولكن كان هناك شيء ما. كان شيئًا هزيلًا جدًّا، هشًّا جدًّا، يمكن أن يتطاير من أي هبة رياح. كان شيئًا لا يمكن الإمساك به أو تعريضه للضوء، من دون المخاطرة بموته. لقد أخرجناه إلى النور، فمات، لن يعود أبدًا.

قال:

ـ هل ترغبين أن نذهب إلى هناك، إلى شارع «جوريتسيا»، لوهلة؟ ما زلت أحتفظ بتلك الحجرة، وأدفع الإيجار لها. أتعرفين؟ كنت أذهب إليها بعض المرات، بينما تذهبين أنتِ مع أمكِ إلى الخياطة، أو إلى محلات البياضات. كنت أذهب إلى هناك، أستريح بعض الوقت، وأحيانًا أُعِد لنفسي القهوة. كنت أشعر بسكون عظيم، وسلام رائع.

قال:

ـ هل ترغبين في أن نذهب إلى هناك لوهلة؟

قلت:

ـ أوه، لا أعتقد؛ سأشعر بالإحباط الشديد يا «تومازينو».

قلت:

ـ شيء واحد هو الحقيقي، أنني أنا أحبك وأنت لا تحبني. أنا أحبك، الآن، ومن قبل، وسأحبك دائمًا، أما أنت فلا، لم تحبني قَطُّ.

ذهبنا لنركب الحافلة. لم ننتظر الميعاد الأخير، كانت الساعة لا تزال الخامسة بعد الظهر، ولم تكن الشمس قد غربت بعد.

كانت الحافلة تقريبًا فارغة. جلسنا متجاورَين، ولم نتحدث على الإطلاق.

*

في صباح اليوم التالي، استيقظت، وارتديت ملابسي بهدوء شديد، حتى لا تسمعني أمي، وذهبت إلى «كازا توندا».

لم أذهب إلى هناك قَطُّ بمفردي. ذهبت بالفعل عدة مرات، ولكن مع أمي أو «جيمينا» أو «رافايلَّا».

فتح لي «تومازينو» الباب. كان قد استيقظ بالفعل وارتدى

ملابسه، مع أن الوقت كان مبكرًا. كان يرتدي بلوفرًا سميكًا رماديًّا، باهت اللون، على الرغم أن اليوم كان مُشمِسًا يميل إلى الحرارة في الخارج.

قال لي، من دون أن يبدي أي تعجب:

ـ أهلًا. لست في أحسن حال، أُصبت بدور برد، ربما أُصبت أيضًا بالحُمَّى في أثناء الليل، لهذا ارتديت البلوفر.

وقف هناك في غرفة الطعام، والبلوفر متدلٍّ على جانبيه النحيفَين، وكُمَّاه مليئان بالمناديل.

كان يمسك بيده إسفنجة صغيرة، ينظف المسجِّل.

قال:

ـ أتريدين أن تتكلمي قليلًا في المسجِّل؟ شيء مثير أن يستمع المرء إلى صوته. في البداية لم أكن أتحمل الاستماع، كنت أشعر أن صوتي كريه، مزيَّف. إلا أنني اعتدته الآن، ولكنه شيء مؤثِّر. جربي.

قلت أنا:

ـ لا.

كنت قد جلست ويداي موضوعتان في جيبَي الجاكيت، وكنت أنظر إليه. كنت أنظر إليه، أنظر إلى رأسه، إلى شعره

المنفوش، والبلوفر الطويل المتسع، ويديه النحيفتين اللتين لا تتوقفان عن الحركة، وتلوِّحان دائمًا.

قلت:

ـ لقد أتيتُ لأعيد إليكَ الخاتم.

وأخرجته من جيبي، خاتمًا صغيرًا بفصٍّ لؤلؤ صغير، الخاتم الذي أهداني إياه، والذي كان ملك والدته، السيدة «تشيتشيليا».

أخذه ووضعه فوق المائدة.

قال:

ـ لم تعودي ترغبين في الزواج بي إذن؟

قلت:

ـ لا؛ كيف يمكنكَ أن تفكر أنني ما زلت أرغب في الزواج بك، بعد كل ما قلناه أمس؟

قال هو:

ـ أمس كنت مُحبَطًا، كنت متشائمًا، ربما كنت أشعر بأنني أصاب بالحُمَّى.

قال:

ـ لكن بالتأكيد معك حق، هذا أفضل.

نظرت حولي. قلت:

ـ كنت قد تخيلت كل شيء، بوضوح شديد. كنت أتخيلني أنا وأنت، هنا في هذه الحجرة، في هذا المنزل. تخيلت كل شيء، بدقة شديدة جدًّا، حتى أصغر التفاصيل. وعندما نرى الأشياء المستقبلية بوضوح شديد، كأنها تحدث بالفعل، فهي علامة على أنها يجب أن لا تحدث أبدًا، لأنها قد حدثت بالفعل، بطريقة ما، في خيالنا، ولم يعُد من المسموح تجربتها فعليًّا.

قلت:

ـ مثلما يحدث أن يكون الجو واضحًا جدًّا في بعض الأيام، شديد الوضوح، حتى إننا نرى كل ما يحيط بنا لامعًا، دقيقًا، مُحددًا، ويعني هذا أنها ستمطر.

قال:

ـ كم أنتِ هادئة! لا تبكين، وتقولين كل شيء بهدوء شديد.

قال:

ـ وأنا، ماذا سأفعل؟

قلت:

ـ ستفعل ما كنت تفعله دائمًا.

قال:

ـ وأنتِ؟ ماذا ستفعلين؟

قلت:

ـ أنا أيضًا سأفعل ما كنت أفعله دائمًا.

قال هو:

ـ كم نحن هادئان! كم نحن باردان، ساكنان، هادئان!

قال وهو يلف شعره حول إصبعه:

ـ أنا أتمنَّى أن تقابلي، يومًا ما، رجلًا أفضل.

قال:

ـ أتعرفين؟ لا توجد بداخلي شحنة حياة حقيقية. هذا هو الشيء الذي أفتقده كثيرًا. أشعر أنني لست سوى رعشة من الضجر، عندما أحاول أن أفعل شيئًا. أرغب في أن أقوم بشيء، وأصاب بتلك الرعشة. شخص آخر، ربما لا يُلقي بالًا برعشة مثل هذه، وينساها على الفور. أما أنا فأحملها طويلًا في قلبي.

قال:

ـ لماذا لديَّ دائمًا هذا الشعور بأن الآخرين قد عاشوا ما يكفي قبلي، وأنهم قد استهلكوا كل المصادر، وكل الشحنات المُتاحة للحياة؟ الآخرون، «نيبيا» و«فينتشينزينو»، وأبي. لم يتركوا لي شيئًا.

قال:

ـ الآخرون، كل من عاشوا في تلك البلدة قبلي، يبدو لي أنني لست سوى ظلِّهم.

قال:

ـ في البداية، بعد موت «فينتشينزينو»، كنت أفكر بأن عليَّ أن أكمل كل مشاريعه. كان لديه كثير من المشاريع، خطط للمصنع، ومطاعم ومنازل، وأحياء للعمال. كانت كلها أشياء ذات معنًى، أشياء عملية، لم تكن مجرَّد أحلام. لم يسمح له الوقت بأن يستكمل كل هذه الأشياء، وكنت أعتقد أن عليَّ أن أفعل هذا.

قال:

ولكن لم أستطع أن أفعل أي شيء. أوافق على كل ما يقوله «البوريللو». ليست لديَّ الرغبة في مواجهته. أنحني وأوافق.

قال:

ـ أحيانًا يخطر على بالي أن أترك هذه البلدة. ربما عثرت على بعض من الطاقة الحيوية.

قال:

ـ قد أذهب إلى كندا. منذ فترة، في العام الماضي، قال لي «بورزاجي» إن بإمكانه مساعدتي للحصول على عمل هناك. في كندا، في مونتريال.

قلت:

ـ كندا، لا أعرف كيف تكون. أتخيلها مكانًا مليئًا بالأخشاب.

قال:

ـ أجل.

وضحك.

ـ لا بد أن هناك بعض الأخشاب، والغابات.

من نوافذ الحجرة كان يمكن رؤية «فيلَّا روندينى». وكان «البوريللو» هناك، في الحديقة، يلعب التنس مع ابن «بورزاجي».

قال «تومازينو» وهو ينظر من وراء زجاج النافذة:

ـ ها هو ذا هناك، ها هو ذا «البوريللو» الوسيم. لديه هو

بالفعل كثير من الحيوية. إنه غبي، ولكنَّ لديه كثيرًا من الطاقة. أو الأفضل أن نقول إنها ليست لديه، ولكنه يتصرف كأنها لديه، ويحصل على النتائج التي يرغب في الحصول عليها.

قال:

ـ ربما السبب الأساسي أنه غبي، ولم يُدرك أنهم استهلكوا بالفعل كل شحنة الحياة الموجودة في هذه البلدة.

قال:

ـ كم يمكن لبلدة أن تُثقِل على المرء إلى هذا الحد؟ لها ثقل الرصاص، بكل من ماتوا فيها! كم تُثقِل عليَّ بلدتنا هذه! بحجمها الصغير، وبيوتها المعدودة! لا يمكنني أبدًا التحرُّر منها، ولا يمكنني نسيانها! حتى إنني إذا ذهبتُ لأعيش في كندا، فسأحملها معي!

قال:

ـ لو كنتِ أنتِ فتاة من بلدة أخرى! لو كنتُ قد قابلتُكِ في مونتريال، أو في أي مكان آخر، لو كنا قد تقابلنا وتزوجنا! كنا سنشعر بأننا حُرَّان، خفيفان، بلا تلك البيوت، وتلك الهضاب، وتلك الجبال! كنت سأكون حرًّا كالطير!

قال:

ـ ولكن حتى لو أخذتُك الآن معي إلى مونتريال، فالأمر سيان، لن يكون في استطاعتنا اختراع أي شيء جديد. ربما سنستكمل هناك التحدث عن «فينتشينزينو»، عن «نيبيا»، عن «البوريللو». الأمر سيان، كأننا هنا.

قال:

ـ ثم مَن يدري إن كنتُ أنا سأذهب أبدًا إلى مونتريال؟

ثم قال وقد أمسك بوجهي بين يديه:

ـ ارحلي الآن، لترحلي هكذا، بلا بكاء، من دون أن تذرفي ولا حتى دمعة واحدة. اذهبي وعيناكِ جافتان، مفتوحتان جيدًا، وهادئتان، لأن الأمر لا يستحق الدموع. وأريد أن أتذكركِ هكذا.

قال:

ـ مع السلامة، وداعًا يا «إلسا».

وقلت أنا:

ـ مع السلامة، وداعًا يا «تومازينو».

وذهبتُ.

* * *

في الأيام التالية، أتى «البوريللو» إلى أبي ليشرح له أنني و«تومازينو» اتفقنا، ولدينا أسبابنا، على أن نفسخ الخطبة.

يحب «البوريللو» إجراءات فسخ الخطوبة. كان هو قد تولى أمر فسخ خطوبة «فينتشينزينو» مع البرازيلية و«ماميتا» قبل عدة أعوام.

عرض على أبي نقودًا مقابل المصروفات التي أنفقها. رفض أبي ببرود وشعر بالإهانة.

ولكنه لم يشعر بأي ضيق من «تومازينو». فقد كنت قلت له أنا أيضًا إننا اتفقنا معًا على عدم إتمام الزواج، ولدينا أسبابنا، ولم يسئ طرف إلى الآخر. لا يستطيع أبي أن يتضايق من «تومازينو»، لأنه يحبه، ولا يزال يحبه حتى الآن. وكان يحب جدًّا «بالوتا المُسن» وهو يحترم ذكراه.

قال أبي لأمي أن تتركني لحالي. قال إن شباب اليوم لديهم مشكلات نفسية خفية، ومعقَّدة، لن يفهمها مَن ينتمي إلى الجيل المُسن.

لكن أبي، في الفترة الأولى، كان مُحبَطًا جدًّا. شعر بالضيق تجاه المصنع، ولم يكن يرغب في الذهاب. كان يقول إنه

أصبح مسنًّا، ولا يرغب في العمل، ويرغب في التقاعد والراحة. وبدأ عملًا استشاريًّا صغيرًا في «تشينيانو»، في شركة للمقاولات.

عندما عرفت أمي بفك الخطوبة، بكت، وفقدت الوعي، وكان لا بد من استدعاء السيدة «بوتيليا»، التي مكثت وأخذت تواسيها طوال الليل.

ثم أخذت في وضع البياضات الخاصة بجهازي في الخِزانات. وعندما عثرَت في يوم من الأيام على الشال الإسباني، الذي كانت قد خاطت له كُمَّين من القطيفة، وقد أصبح الآن بلا فائدة، أخذت تبكي بشدة، لمدة طويلة، من جديد.

لفترة طويلة، لبضعة أشهُر، رفضت أن تخرج من المنزل؛ إذ كانت تشعر بالخجل من الناس.

قالوا أشياء كثيرة في البلدة. قالوا إنني تركت «تومازينو» لأنني عندما ذهبت إلى «كازا توندا» مبكِّرًا في الصباح، عثرت عليه في الفراش مع ابنة «بيتا»، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا.

قالوا إنني تركته لأن أبي، بصفته مُحرِّر العقود، اكتشف أن المصنع في موقف ماليٍّ خطير.

قالوا إنه هو تركني لأنني لديَّ كثير من العشاق.

قالوا إنه تركني لأنه أدرك أنني أتعاطى المورفين مع «جيجي سارتوريو».

ذهبتُ لبضعة أشهر إلى «لامبرات»، إلى أخت ابن العم «إرنستو».

وأيضًا «تومازينو» رحل في ذلك الوقت، لكنه لم يذهب إلى مونتريال. ذهب وحده إلى «ليفربول» لبضعة أشهر، ليستعجل بعض الأعمال بدلًا من «البوريللو».

عندما عُدت من «لامبرات»، لم يكونوا يتحدثون في البلدة عني أنا و«تومازينو».

كانوا يتحدثون عن «جوليانا بوتيليا» و«جيجي سارتوريو»، اللذَين كانا قد تزوجا وابتاعا فيلَّا كبيرة، بعيدة عن الأب المُسن، وتركاه وحده.

* * *

الآن عاد «تومازينو». أنظر في المساء إلى الأضواء المضاءة هناك في «كازا توندا».

عاد، وأحيانًا أقابله في الميدان عندما أذهب إلى مكتب البريد.

يحيِّيني بطريقته المعتادة، رافعًا يده تجاه جبهته. أحييه. بعض المرات يتوقف ويسألني:

ـ كيف حالك؟

أقول له:

ـ بخير، شكرًا.

ثم نذهب في اتجاهين مختلفَين، أنا بمحاذاة غابة الجنرال «سارتوريو»، وهو إلى الممر المؤدِّي إلى «كازا توندا».

أقابل أحيانًا «مانيا ماريا»، التي أصبحت في حالة حداد دائم إذ توُفِّي «باربا تومازو». تشير إليَّ من بعيد، وتبتسم ابتسامة عريضة بأسنانها البيضاء.

أقابل أحيانًا «جيمينا»، التي لم تعد تُحَيِّيني، وأقابل أحيانًا «رافايلّا» مع «بيبي».

تُحَيِّيني «رافايلّا». توقفني. تقول:

ـ كم أحزنني أنكما لم تتزوجا، أنت و«تومازينو»!

لا أقول شيئًا، وأربت على شعر «بيبي».

تقول:

ـ أحزنني كثيرًا لأنني أعتقد أنكِ لطيفة جدًّا. و«تومازينو» أيضًا شخص لطيف.

أقول أنا:

- أجل.

تحملق إليَّ طويلًا، بعينيها السوداوين الكبيرتين، الفضوليتين، في محاولة للفهم.

ولكنها سرعان ما تَشرُد، وتتركني لتجري خلف «بيبي». وتحيِّيني مرة أخرى بيدها من بعيد.

لم أعُد أرى أبدًا «جوليانا بوتيليا». تمكث هناك في بيتها الكبير، مع ثلاثة من الخدم، وبستاني. يقولون في البلدة إن «جيجي سارتوريو» ينام مع البستاني والخدم، ولا يفعل ذلك كثيرًا مع زوجته.

قالت السيدة «بوتيليا» لأمي:

- كم هما سعيدان معًا «جوليانا» و«جيجي»! أتأثر كثيرًا برؤيتهما.

قالت:

- إن «جيجي» شخص طيب جدًّا، جدًّا، يُحضِر لها الهدايا دائمًا من باريس ومن لندن. أحضر لها من باريس حقيبة من جلد التمساح، رائعة الجمال.

سألت أمي:

ـ ومن لندن؟

ـ من لندن، أحضر لها طقم شاي من ثلاث قِطع: إبريق الشاي، ووعاء للسكر، ووعاء للحليب.

قالت أمي:

ـ جميل.

قالت السيدة «بوتيليا»:

ـ طراز «جورجي» خالص، أصلي.

ـ «جورجي»؟ من جورجيا؟

شرحت السيدة «بوتيليا»:

ـ لا، بالتأكيد لا، «جورجي» من «جورج».

ـ «جورج» من؟

ـ ملك من الملوك.

عادت أمي إلى المنزل وقالت لأبي:

ـ في الحقيقة، لا أحد يفهم إن كان «جيجي سارتوريو» شاذًا جنسيًا. يبدو من كلام «نيتا» أنه يحب زوجته جدًا. ولكن في البلدة يقولون إنه على علاقة بالبستاني. لقد رأيت أنا هذا البستاني، قبيح جدًا، لديه شعر أسود طويل على أنفه.

ثم قالت بعد أن فكرت لوهلة:

ـ ولكن ربما تكون هذه إحدى علامات الرجولة.

* * *

وحلَّ شهر أكتوبر من جديد.

نحن في طريق العودة، أنا وأمي، من كَرْمِنا، حيث ذهبنا لنرى المحصول. نحن في طريق العودة، وأمي تسير ببطء شديد. أسبقها ببضع خطوات. أحمل سلة من عنب «الموسكات»، معلَّقة على ذراعي.

حلَّ الليل تقريبًا، وبدأ الجو يبرد. أُضيئت المصابيح في البلدة. الأرض على المدق قاسية، والعشب أصبح ذابلًا ورطبًا، وأخذت الرياح تصفر لاسعة ولاذعة ربما اقترب هطول الثلج.

تقول أمي:

ـ أشعر بتصلُّب في رقبتي، تُرى ما السبب؟ لا أعتقد أنها الرياح، لا بد وأنني استدرت بقوة فجأة، عندما نادتني الفلاحة.

تقول:

ـ فلاحتنا الجديدة تلك، لا أتذكر اسمها أبدًا، اسمها

«دروزبالدا». في الريف لديهم أذواق غريبة في اختيار الأسماء.

تقول:

ـ لا بأس بهم، ولكني لا أعتقد أنهم يحافظون كثيرًا على النظافة. رأيت أن المنزل لم يكن نظيفًا جدًّا. قدَّموا لي القهوة، وشعرت بمغص في معدتي.
لأن الفنجان لم يكُن نظيفًا. كنت أشربه رغمًا عني.

تقول:

ـ في أحد تلك الأيام أريد الذهاب إلى «جوليانا» لأرى إبريق الشاي.

تقول:

ـ مَن يدري كيف استطاعت «جوليانا» أن تتزوج قبل أختيها، وهي أكثر غباءً منهما؟

تقول:

ـ عادة ما تجد الغبيات فرصًا للزواج. البنات الأفضل، لا يجدن.

تقول:

ـ أتعرفين؟ لم أذهب إلى جنازة «باربا تومازو». كنتِ

أنتِ في «لامبرات». ذهب أبوكِ مع الخالة «أوتافيا». أنا لم أذهب. تضايقت أنني لم أذهب لأجل خاطر «مانيا ماريا». ولكن لم أكن أستطيع. لم أكن أشعر بأنني أرغب في مصافحة «البوريللو».

تقول:

ـ لم أرَ «البوريللو» بعد فسخ الخطوبة قَطُّ. لم أتحدث معكِ عن ذلك لأن أباكِ لا يريد هذا، ولكنني متأكدة أن ما حدث كان بسبب «البوريللو». هو من أهاج «تومازينو» ضدنا.

تقول:

ـ إن «تومازينو» ضعيف، شخصية مسكينة. في واقع الأمر من الأفضل أنكِ لم تتزوجيه، فهو شخص ضعيف، لا طابع له، شخصيته غير محدَّدة الملامح. وحتى هناك في المصنع، ليس له وظيفة محددة. يجلس خلف المكتب، فقط لأنه ابن «بالوتا» وأخو «فينتشينزينو» المسكين. كان لـ«فينتشينزينو» هيبة، وشخصية قوية. ولكن أتعرفين؟ حتى زواجه هو انتهى نهاية سيئة. ولكن لا بد وأنه كان خطأ زوجته، «كاتي» تلك.

تقول:

ـ لا بد أن «تومازينو»، بسبب شخصيته الضعيفة، قد أصغى إلى «البوريللو». لا بد أن «البوريللو» قد قال له أن يبحث عن فتاة أكثر ثراءً، وبلا اشتراكيِّين في عائلتها.

تقول:

ـ لأنه، كما تعلمين، أصحاب المصانع هؤلاء، يخافون جدًّا من الاشتراكيين. بالتأكيد، ربما يتظاهرون بأنهم معجبون بهم، ولكن هذا ليس حقيقيًّا. بمجرَّد أن يشتمُّوا وجودهم من بعيد، يهربون بعيدًا كالأرانب البرية، ولا يعودون. هذه هي الحال الآن. ربما لم تكُن كذلك في وقت ما، كان الأمر مختلفًا، مثلًا، كان «بالوتا المُسن» نفسه اشتراكيًّا.

تقول:

ـ ولكن أباكِ لا يرغب في أن أتحدث معك. لقد سبب هذا الأمر استياء شديدًا لنا. التزم أبوكِ الصمت، ولكنني أعرف أنه يفكر فيه دائمًا. الآن يرغب في أن ننتقل إلى «تشينيانو». لقد أصبح يكره هذه البلدة.

تقول:

ـ إذا ذهبنا إلى «تشينيانو»، فستكون لديَّ رفقة «أولجا»، ابنة «نينو كونفرسي». رأيتها يومًا في الميدان، وقالت لي

إنها ستفرح جدًّا إذا ذهبنا. لها ابنة في سِنِّك، يمكنكما الذهاب للعب التنس معًا. أعتقد أنها تلعب. ولها ابن أيضًا.

قالت لي إنه بإمكاننا أن نستأجر المسكن الواقع فوق الصيدلية. إنه ملك «بوباتزينا»، أرملة المسكين «نيببيا».

تقول:

ـ سأؤجر منزلنا هنا. سنضطر بالتأكيد إلى بيع غرفة الطعام لأنها ضخمة جدًّا. يؤسفني هذا لأنها كانت لأبي.

تقول:

ـ ولكنني سأرسل دائمًا لشراء اللحم من هنا، مرة في الأسبوع، فسعره هنا أرخص بكثير. وإذا بعت غرفة الطعام، فسأبتاع ثلاجة. «جوليانا» لديها واحدة، وهم سعداء بها جدًّا.

تقول:

ـ ولكن الزبد والجبن أفضل في «تشينيانو». هم يصنعون ذلك الجبن المستدير، وبعض الأنواع الصغيرة، والمستديرة والمالحة. شهية جدًّا.

تقول:

ـ «تشينيانو» موقعها منخفض. ستكون أفضل لضغطي، «تشينيانو».

تقول:

ـ مَن يدري إن كانت «أنطونيا» سترغب في الذهاب إلى «تشينيانو»؟
مَن يدري إن لم تكن ستضع في رأسها أن الهواء سيتعبها؟ على كل حال إذا لم تأتِ، فسأتصرف من دونها. ومع وجود الثلاجة، ووسائل الراحة الأخرى، من سيعود في حاجة إلى خادمة؟
إن هذا المسكن فوق الصيدلية صغير، ولكنه كالجوهرة. أنا لم أرَه، ولكن قالت لي هذا «أولجا»، ابنة «نينو».

تقول:

ـ هذا معناه أنه إذا كان المكان ضيقًا، فيمكن أن تنامي أنتِ مع الخالة «أوتافيا». لن تزعجكِ الخالة، يكفي أن تضعيها هناك مع كتاب، ولا يسمع عنها أحد.

تقول:

ـ مَن يدري إن كانت ستكون هناك خِزانات مثبتة في الحوائط؟ ومَن يدري إن كان سيكون هناك مكان لخِزانتي؟

الآن، بمجرد أن نصل إلى المنزل، لا بد أن أقيس درجة الحرارة. ربما لديَّ بعض الحمى.

مَن يدري إن كان لا بد أن أتناول حبة أسبيرين؟ عادة لا أهضمها، بل تبقى كالرصاص في معدتي.

العيب الوحيد في ذلك المسكن فوق الصيدلية، أن القطار يمر بالقرب منه جدًّا، وأنا نومي خفيف جدًّا. كيف سأنام؟

مَن يدري إن كنت سأستيقظ في الليل بسبب جرس الصيدلية؟ مَن يدري إن كان صوت الجرس مرتفعًا جدًّا؟ ولكن سيكون شيئًا مُريحًا وجود الصيدلية أسفلنا، يكفي أن ينزل المرء بعض الدرجات، إذا احتجنا إليها.

مَن يدري إن كانوا يوفرون في صيدلية «تشينيانو» تلك الأشياء التي آخذها أنا للضغط؟

٢٠ مارس – ١٢ أبريل ١٩٦١

«واحدة من أهم الكتّاب في إيطاليا اليوم»

«نيويورك تايمز»

بلغت «إلسا» السابعة والعشرين من العمر وما زالت عزباء، وما هذا إلا أحد أسباب الشكاوى الدائمة والمتعددة لوالدتها. لكن ثرثرة الأم ليست استثناء في البلدة الإيطالية التقليدية التي تعيش فيها «إلسا» وعائلتها، والتي تدور الحياة فيها حول مصنع للقماش تمتلكه عائلة «دي فرانتشيشي».

في سرد اقتصادي إلى أقصى حد، مجرد من أي تفسير أو تعليق، ومبني بالدرجة الأولى على الحوار، تعرض «إلسا» قصة أفراد هذه العائلة، وصولًا إلى الابن الأصغر، الذي تلتقيه سرًا في المدينة المجاورة مرتين في الأسبوع. على وقع الثرثرة المتواصلة في البلدة، يقول كاتب إيطاليا الأشهر «إيتالو كالفينو»: «تحكي لنا «نتاليا» قصة صمتين يتداخلان، يبحثان عن التكامل، ثم يتصادمان».

ويتابع «كالفينو» عن رواية «جينزبورج» الشهيرة: «إن «أصوات المساء» هي قصة أناس يحاولون دفن أفكارهم، وتحديد هويتهم فقط من خلال الأفعال التي يقومون بها والكلمات التي يقولونها».
رواية ممتعة ومؤثرة، تتميز بواقعيتها الفعالة وسخريتها المبطنة.

«نتاليا جينزبورج» (١٩١٦-١٩٩١) كاتبة ومترجمة وناشطة سياسية تصنَّف بين أهم أدباء القرن العشرين في إيطاليا. نشرت الروايات، والمسرحيات، وكتابات في السيرة الذاتية، كما ترجمت «بروست» و«فلوبير» إلى الإيطالية. حازت جوائز أدبية إيطالية مرموقة مثل «ستريجا» و«باجوتا».

اختيرت «أصوات المساء» ضمن القائمة القصيرة لجائزة «ستريجا»، وهي أول رواية تنشر لها بالعربية.